إميل ناصيف

أروع ما قيل في الرثاء

دار الجيل
بيروت



أروع ما قيل في الرثاء



أروع ما قيل في الرثاء

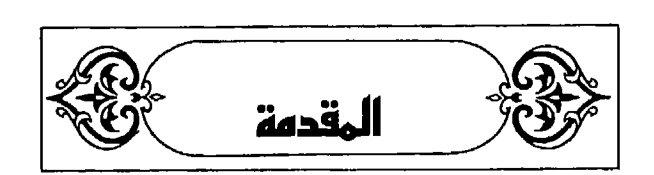
إعداد

إميل ناصيف

دار الجيل

بيروت

الطبعَة الثانيَة



المقدمة

الرِّثاء فنٌّ من فنون الشِّعر الغنائيّ يُعَبِّر فيه الشاعر عن حزنه وتفجّعه لفقدانِ حبيب. وهو يتلوّن بألوان مختلفة تبعاً للطبيعة والمزاج والمواقف، فإذا غلب عليه البكاء على الرّاحل، وبثّ اللوعة والحزن، كان نَدْباً، وإذا غلب عليه تسجيل الخصال الحميدة التي تمتّع بها الفقيد في حياته، كان تأبيناً. وإذا غلب عليه التأمّل في حقيقة الموت والحياة كان عزاءً. وقد يجتمع الندب والتأبين والعزاء في القصيدة الواحدة.

والرِّثاء يقترن بالموت، وليس في العالم أمّة لم تعرف الرِّثاء، كما أنّه ليس فيه أمّة لم تعرف الموت، فالرِّثاء وُجد عند كلّ الأمم والشّعوب باديةً وراقيَةً مُتَحضِّرة.

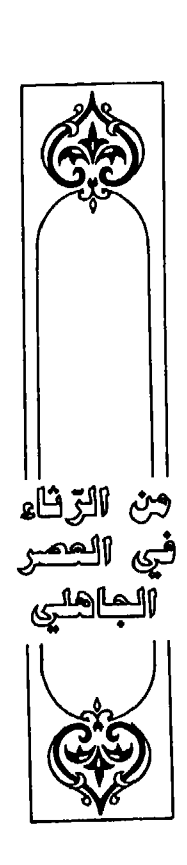
وعرف أدبنا الرِّثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كانت النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى، كما كانوا يقفون على قبورهم مُؤبِّنين لهم مُثْنين على خصالهم. وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأنّ ذلك مصيرٌ محتوم.

وأشهر شعراء الرِّثاء في الأدب العربيّ المُهَلْهِل والخنساء في العصر الجاهليّ، وحسّان بن ثابت ومتمّم بن نويرة في عصر صدر الإسلام، وجرير في العصر الأمويّ، والمتنبّي وابن الرومي وأبو تمّام في العصر العباسيّ، والأخطل الصّغير، وحافظ إبراهيم في العصر الحديث.

وقد أثبتُّ في كتابي هذا أروع ما وجدته لهؤلاء الشعراء من قصائد الرّثاء، وضممتُ إلى هذه القصائد أخواتٍ لها لشعراء آخرين لم يقلّوا جودَةً في رثائهم عن الشعراء الخالدين الذين سبق ذكرهم.

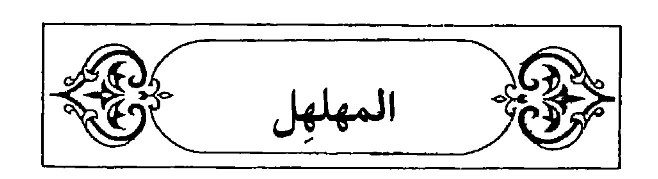
وآمل أن تُعجب هذه الباقة من قصائد الرثاء التي اخترتها القُراءَ الأعزّاء، فأكون قد وُفِّقت في عملي، وإلاّ فحسبي أنّني حاولت، والله وليّ التوفيق.

المؤلّف



من الرثاء في العصر الجاهلي





المهلهِل

هو عديّ بن ربيعة التغلبيّ، وخال الشاعر امرىء القيس، لُقِّب بالزِّير لكثرة مجالسته النساء. كان يقضي أيّامه في اللهو وشرب الخمر. وكان له أخ اسمه وائل، ولقبه كليب، وامرأته جليلة بنت مرّة الشّيباني من بكر، وكان لمرّة عشرة بنين أصغرهم جسّاس. وحدث يوماً أن نزلت خالة جسّاس، واسمها البسوس، على جسّاس، فرمى كليب ناقتها وفصيلها بقوسه، فقتل الفصيل، وراحت الناقة تعجّ. فلمّا رأتها البسوس صاحت: «وا ذلّاه». فقال لها جسّاس: اسكتي، فلكِ بناقتكِ ناقةٌ أعظم منها». فأبت إلّا رأس كليب. فقتل جسّاس كليباً، وهبّ المهلهل يطلب ثأر أخيه، ونشبت الحرب بين بكر وتغلب، فدامت أربعين سنة ودُعيتْ حرب البسوس. وقد أبدى المهلهل في تلك الحرب شجاعة نادرة، وأُسِر في آخر الأمر، ومات في أسره سنة ٥٣١ م.

للمهلهل ديوان شعر أهمّ ما فيه رثاؤه لأخيه كليب. ورثاؤه مزيج من دمع وحرب، من عاطفة رقّة تنبعث من قلب محبّ، وعاطفة خشونة تنبعث من حالة البراءة والفطرة.

رثاء كليب

أهــاجَ قَــذَاةَ عَـيْـنــيَ الاذّكــارُ

هُـدُوءًا فالـدُّمُوعُ لهـا انحِـدارُ[1]

وصـــارَ الليـــل مُشْتَمِـــلاً عَلَيْنَــا

كــأنَّ الـلَّيْــلَ لـيس لَــهُ نَـهَــارُ

وَبِـتُّ أُرَاقِـبُ الـجَـوْزَاءَ حَـتَّـى

تَقَــارَبَ مِنْ أَوائلهـا آنحــدارُ[2]

أُصَــرِّفُ مُقْلَتِـي في إثْــرِ قَــوْمٍ

تَبَــايَنَـتِ البــلادُ بِهِمْ فَغَــارُوا[2]

وَأبْـكِي والـنـجــومُ مُــطَلَّعَــاتٌ

كــأنْ لَمْ تَحْـوِهــا عَنِّي البِحَــارُ

على مَنْ لــو نُعِيتُ وكـان حَيّــاً

لَقَــادَ الخَيْــلَ يَحجُبُهــا الغُبَــارُ

دَعَــوْتُـكَ يــا كُلَيْبُ فَلَمْ تُجِبْني

وَكَيْفَ يُـجِيبُنـي البَـلَدُ القِـفَــارُ

أجِبْنـي يــا كُـلَيْـبُ خَــلاَكَ ذَمٌّ

ضَنِينَــاتُ النُّفُـوسِ لهــا مَــزَارُ

أَجِبْنـي يــا كُـلَيْـبُ خَــلاَكَ ذَمٌّ

لَقَــدْ فُجِعَتْ بِـفَــارِسِهــا نِــزَارُ

---

(١) القذاة: ما يخرج من العين الرمداء. هدوءاً: في هدأة الليل، سكونه.

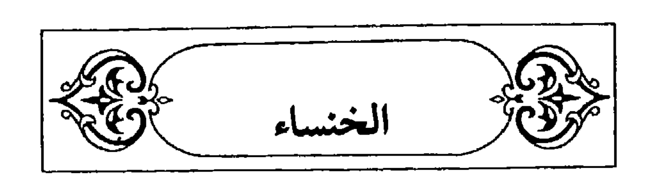
(٢) الجوزاء: برج في السماء.

سَقَــاكَ الغَيْثُ إنّـكَ كُنْتَ غَيْثــاً
وَيُسْــراً حيـن يُلْتَـمَسُ اليســارُ
أبَتْ عَيْنَــاي بَعْــدَكَ أنْ تَـكُفَّــا
كـأنّ غَضَى القَتَـادِ لهـا شِفَـارُ[1]
وإنَّــكَ كُنْتَ تَحْلُمُ عَنْ رِجــالٍ
وَتَـعْفُــو عَـنْهُـمُ ولَــكَ آقْـتِـدَارُ

المهلهل

(١) الغَضَى: نوع من الشجر. القتاد: الشوك. الشفار: منابت أهداب العين.





الخنساء

هي أمّ عمرٍو بنت عمرو بن الشّريد السّلميّة الملقّبة بالخنساء. ولدت نحو سنة ٥٧٥ م، ونشأت في بيت ثروة وجاه. وكان لها أَخَوان: معاوية وصخر، وكان صخر يعطف عليها بنوعٍ خاصّ، فقُتِلا كلاهما. وكان لمقتلهما صدى بعيد في نفسها، فبكت حتّى تقرّحت مقلتاها، بل حتّى عميت، وذاب قلبها التياعاً، ورثتهما بشعر رقيق، وخصّت صخراً بالقسم الأكبر منه. وقد أدركت الإسلام فاعتنقته مع بنيها، وكانت وفاتها سنة ٦٦٤ م.

لها ديوان شعر كلّه في رثاء أخويها، ولا سيّما صخر، يشعر من يقرأه أنّه في مأتم يسمع فيه عويل النائحات، وندب النادبات. هو ديوان امرأة أُصيبت في الصميم، وفقدت من تُحبّ ومن كان للحرب سيفاً بتّاراً، وللمجالس سيّداً مختاراً، وللقرى والضّيافة نحّاراً، وللنجدة فارساً مغواراً. وهي، في رثائها، تتمثّل أبداً أخاها وتخاطبه، وتصوّره بحبّ أخويّ صادق، وتبكي ولا تملّ من مخاطبة العينين تسألهما الدمع، والعينان تجيبان، وإذا الدمع نار في هشيم، وإذا اللوعة أبداً في ازدياد. وفيما يلي بعض النماذج من رثائها.

رثاء صخر

يُـؤَرِّقُني آلتَّـذَكُّـرُ حِينَ أُمْسِي
فَـأُصْبحُ قَـدْ بُلِيتُ بِفَـرْطِ نُكْسِ
عَلَى صَخْـرٍ، وَأَيُّ فَتًى كَصَخْـرٍ
لِيَـوْمٍ كَرِيهَـةٍ وَطِعَانِ خَلْسِ؟[1]
فَـلَمْ أَرَ مِـثْـلَهُ رُزْءاً لِـجِـنٍّ،
وَلَـمْ أَرَ مِـثْـلَهُ رُزْءًا لإِنْسِ[2]
يُـذَكِّرُنِي طُلُوعُ آلشَّمْسِ صَخْـراً
وَأَذْكُـرُهُ لِكُـلِّ غُـرُوبِ شَمْسِ
وَلَـوْلاَ كَثْـرَةُ آلْبَـاكِينَ حَـوْلِـي
عَلَى إِخْـوَانِهِمْ، لَقَتَلْتُ نَفْسِـي!
وَلَـكِـنْ لاَ أَزَالُ أَرَى عَـجُـولاً
وَبَـاكِيَـةً تَنُـوحُ لِيَـوْمِ نَحْسِ[3]
أَرَاهَـا وَالِـهـاً تَبْـكِي أَخَـاهَـا
عَـشِيَّـةَ رُزْئِـهِ، أَوْ غِـبَّ أَمْسِ
وَمَـا يَبْكِينَ مِثْـلَ أَخِي، وَلَـكِنْ
أُعَـزِّي آلنَّفْسَ عَنْـهُ بِـآلتَّـأَسِّي[4]
فَـلاَ، وَآلـلَّهِ لاَ أَنْسَـاكَ حَـتَّـى
أُفَـارِقَ مُـهْجَـتِي وَيُـشَقَّ رَمْـسِي

(١) طعان خلس: أي طعان فيه إعجال وشجاعة وحذر.

(٢) الرزء: المصيبة.

(٣) العجول: الثكلى الشديدة الحزن من النساء.

(٤) التأسي: التصبر.

فَقَـدْ وَدَّعْتُ، يَـوْمَ فِـرَاقِ صَخْـرٍ
أَبِـي حَسَّــانَ، لَـذَّاتِـي وَأُنْسِـي
فَـيَـا لَهْـفِي عَـلَيْـهِ وَلَهْـفَ أُمِّي
أَيُصْبحُ فِي ٱلضَّرِيحِ وَفِيهِ يُمْسِي!

قذًى بعينك

قَـذًى بِعَيْـنِـكَ أَمْ بِـٱلْعَيْنِ عُـوَّارُ أَمْ
ذَرَّفَتْ أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَـا ٱلـدَّارُ؟[1]
كَـأَنَّ عَـيْـنِـي لِـذِكْـرَاهُ، إِذَا خَـطَرَتْ
فَـيْضٌ يَـسِيـلُ عَلَى ٱلْـخَـدَّيْـنِ، مِـدْرَارُ
تَـبْكِـي لِصَـخْـرٍ، هِيَ ٱلْـعَبْـرَى، وَقَـد وَلِـ
ـهَتْ وَدُونَـهُ مِنْ جَدِيـدِ ٱلتُّـرْبِ أَسْتَـارُ[2]
تَبْكِي خُنَـاسُ، فَمَا تَنْفَـكُّ، مَا عَمَـرَتْ،
لَــهَـا عَلَيْـهِ رَنِـيـنٌ، وَهْــيَ مِـفْـتَـارُ[3]
تَبْكِي خُنَـاسُ عَـلَى صَخْـرٍ، وَحُـقَّ لَهَـا،
إِذْ رَابَـهَـا ٱلـدَّهْـرُ إِنَّ ٱلـدَّهْـرَ ضَـرَّارُ
لَا بُـدَّ مِـنْ مِـيتَـةٍ فِي صَـرْفِـهَـا غِـيَـرٌ
وَٱلـدَّهْـرُ فِـي صَـرْفِـهِ حَـوْلٌ وَأَطْـوَارُ[4]

(١) العوار: رمد العين. أن خلت: أي لأن خلت.

(٢) العبرى: التي لا تجف دموعها. ولهت: اشتدّ جزعها. الأستار: طبقات التراب فوق الميت.

(٣) المفتار: المنكسرة.

(٤) في صرفها: في حدوثها وتصرفها. غير الدهر: نوائبه. الحول: التحول.

قَدْ كَانَ فِيكُمْ أَبُو عَمْرٍو يَسُودُكُم
نِعْمَ ٱلْمُعَمَّمُ، لِلدَّاعِينَ نَصَّارُ[1]

صُلْبُ ٱلنَّحِيزَةِ، وَهَّابٌ، إِذا مُنِعُوا
وَفِي ٱلْحُرُوبِ جَرِيءُ ٱلصَّدْرِ مِهْصَارُ[2]

يَا صَخْرُ وَرَّادَ مَاءٍ قَدْ تَنَاذَرَهُ
أَهْلُ ٱلْمَوَارِدِ، مَا فِي وِرْدِهِ عَارُ[3]

مَشَى ٱلسَّبَنْتَى إِلَى هَيْجَاءَ مُعْضِلَةٍ
لَهُ سِلاَحَانِ: أَنْيَابٌ وَأَظْفَارُ[4]

وَإِنَّ صَخْرًا لَوَالِينَا وَسَيِّدُنَا
وَإِنَّ صَخْرًا، إِذَا نَشْتُو، لَنَحَّارُ[5]

وَإِنَّ صَخْرًا لَمِقْدَامٌ إِذَا رَكِبُوا
وَإِنَّ صَخْرًا، إِذَا جَاعُوا، لَعَقَّارُ[6]

أَغَرُّ أَبْلَجُ، تَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ
كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ[7]

---

(١) المعمم: المسود.

(٢) النحيزة: الطبيعة. المهصار: الكثير الدق للأعناق.

(٣) وزاد ماء: أرادت إقدامه على الموت. تناذره: أنذر بعضهم بعضاً بصعوبته وهوله. أهل الموارد: أي الأبطال.

(٤) السبنتى: النمر. الهيجاء المعضلة: الحرب الشديدة.

(٥) نشتو: ندخل في الشتاء.

(٦) العقار: من عقر الإبل أي حصد قوائمها بالسيف لكيلا تشرد وقت النحر.

(٧) الأغرّ: الكريم والشريف. الأبلج: المشرق الوجه.

جَلْدٌ، جَمِيلُ ٱلْمُحَيَّا كَامِلٌ وَرِعٌ
وَلِلْحُرُوفِ، غَدَاةَ ٱلرَّوْعِ ، مِسْعَارُ[1]

حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ، هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ
شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ، لِلْجَيْشِ جَرَّارُ

وَلَا تَرَاهُ، وَمَا فِي ٱلْبَيْتِ، يَأْكُلُهُ
لَكِنَّهُ بَارِزٌ بِٱلصَّحْنِ مِهْمَارُ[2]

قَدْ كَانَ خَالِصَتِي مِنْ كُلِّ ذِي نَسَبٍ
فَقَدْ أُصِيبَ، فَمَا لِلْعَيْشِ أَوْطَارُ[3]

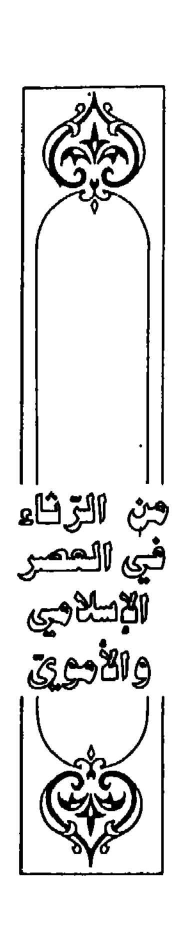
(١) الجلد: الصبور. الورع: المجنب لما فيه إثم. الروع: الخوف والحرب. المسعار: موقد نار الحرب.

(٢) المهمار: الكثير البذل.

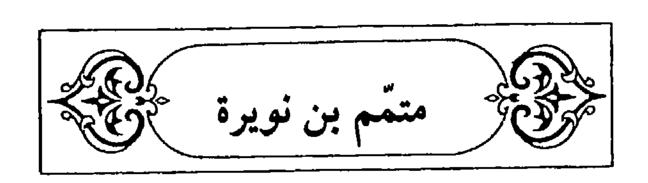
(٣) خالصتي: من يخلص الي المودة.






من الرثاء
في العصر
الإسلامي
والأموي





متمّم بن نويرة

هـو متمم بن نـويـرة بن جمـرة اليـربـوعي التميميّ (. . . - نحـو ٣٠ هـ/نحو ٦٥٠ م) شاعر فحل، صحابيّ، من أشراف قومه، اشتهـر في الجاهلية والإسلام. قُتِل أخوه مالك في حرب الرّدّة، فرثاه رثاءً حارًّا، وظلّ يبكيه حتّى ابيضّت عيناه من الحزن، وحتّى أسخط عمر بن الخطاب على ما كان من قتل خالد بن الوليد له، وصار ندبه لأخيه مصيرَ الأمثال، ومن بديع قوله فيه:

لَقَـدْ لامَني عِنْـدَ الـقُبـورِ عـلى البُـكـا
صَـديقي لِتَـذْرافِ الـدّمـوعِ السَّـوافِـكِ
يَـقـولُ: أَتَـبْـكـي كُـلَّ قَـبْـرٍ رَأَيْـتَـهُ
لِقَبْـرٍ ثَـوَى بينَ الـلِّوى فـالـدَّكـادِكِ
فقُلْتُ لَـهُ: إنَّ الشَّجَـى يَبْـعَثُ الـشَّجَـى
فَـدَعْني، فَـهَـذا كُلُّهُ قَـبْـرُ مـالِـكِ

* * *

أَبَـى الـصَّـبْـرَ آيـاتٌ أَراهـا وَإنَّـنـي
أَرَى كُـلَّ حَبْـلٍ بَعْـدَ حَبْلِكَ أَقْـطَعـا[1]

(١) أقطع: مقطوع.

وَإِنِّي مَتَى مـا أَدْعُ بـاسْمِـكَ لا تُـجِبْ

وَكـنـتَ حَـرِيًّـا أَنْ تُـجِيـبَ وَتَـسْـمَعَـا

تَـحِـيَّـتُـهُ مِـنِّـي وَإِنْ كـان نـائـيـاً

وَأَمْسَى تُـراباً فـوقَـهُ الأَرْضُ بَلْقَعـا[1]

فـإِنْ تَـكُـنِ الأَيَّـامُ فَـرَّقْـنَ بَـيْـنَـنـا

فَقَـدْ بـانَ[2] مَحْمُـوداً أَخِي حِينَ وَدَّعـا

وكُـنّـا كَنَـدْمـانَيْ جَـذِيـمَـةَ حِقْبَـةً

مِنَ الدَّهْـرِ حَتَّى قيـلَ: لَنْ يَتَصَدَّعـا[3]

فَـلَمَّـا تَـفَـرَّقْـنَـا كَـأَنِّـي ومـالـكـاً

لِـطُولِ اجْـتِمـاعٍ لَـمْ نَبِتْ لَيـلَةً مـعـا

ولـو أنّ مـا أَلْـقَـى أصـاب مُـتـالعـاً

أَوِ الـرُّكْنَ مِنْ سَلْمَى إِذَنْ لَتَضَعْضَعَـا[4]

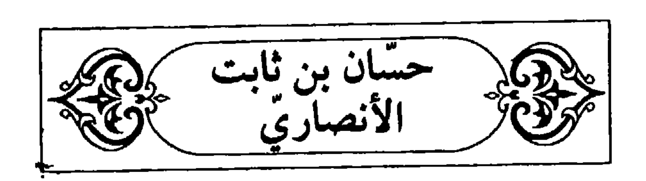
---

(١) بلقع: أرض قفر.

(٢) بان: فارق.

(٣) جذيمة هو جذيمة الأبرش نادَمَ مالكاً وعقيلاً ابني فارج بن كعب ثمّ قتلهما. يتصدَّعا: يتفرَّقا.

(٤) متالع وسلمى: جبلان.



حسّان بن ثابت الأنصاريّ

هو حسّان بن ثابت الأنصاري (... - ٥٤ هـ/ ٦٧٤ م) الصّحابيّ، شاعر النبيّ ﷺ. عاش ستين سنة في الجاهليّة، ومثلها في الإسلام. قال أبو عبيدة: فضل حسّان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهليَّة، وشاعر النبيّ في النبوّة، وشاعر اليمانيِّين في الإسلام.

من أهم قصائده تلك التي رثى بها الرسول ﷺ، وفيما يلي بعض أبياتها:

رثاءُ الرّسُول

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ
مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ[1]

وَلَا تَنْمَحي الآيَاتُ من دَارِ حُرمَةٍ
بِها مِنْبَرُ الهادي الَّذِي كانَ يَصْعَدُ[2]

(١) طيبة: هي مدينة النبي، وهو، صلوات الله عليه، الذي سمّاها بذلك. المعهد: المنزل الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه. الهمود: البلى في كل شيء.

(٢) الآيات: جمع آية وهي العلامة، وقوله «الذي كان يصعد» أي المنبر الذي كان يصعده الهادي صلوات الله عليه.

وَواضِـحُ آيَـاتٍ وَبَـاقِي مَعَـالِمٍ
وَرَبْعٌ لَـهُ فِيـهِ مُصَلّى وَمَسْجِـدُ
بِهَـا حُجُرَاتٌ كَـانَ يَنْزِلُ وَسْـطَهَا
مِنَ اللَّهِ نُـورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُـوقَـدُ[1]
مَعالِمُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى ٱلْعَهْدِ آيُهَا
أَتَاهَا ٱلْبِلَى فالآيُ مِنْهَا تَجَـدَّدُ[2]
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وعَهْـدَهُ
وقَبْـراً بِهِ وَارَاهُ في التُّـرْبِ مُلْحِدُ
ظَلِلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَأَسْعَدَتْ
عُيُونٌ وَمِثْلاهَا مِنَ ٱلْجَفْنِ تُسْعِدُ[3]
تَـذَكَّـرُ آلاءَ الـرَّسُـولِ وَمَـا أَرَى
لَهَا مُحْصِياً نَفْسِي فَنَفْسِي تَبَلَّدُ[4]
مُفَجَّعَـةٌ قَـدْ شَفَّهـا فَقْـدُ أَحْمَـدٍ
فَـظَلَّتْ لِآلاءِ الـرَّسُـولِ تُعَـدِّدُ[5]

---

(١) الحجرات: جمع حجرة يعني مساكن السيد الرسول.

(٢) لم تطمس: لم تتغيّر. آيها: أي إن آياتها لا تزال على ما تعهد. الآي منها تجدّد: أي تتجدّد، ولعل المراد بالآي ههنا آيات الذكر الحكيم.

(٣) فأسعدت عيون: أي فأعانتني عيوني وساعدتني فأتتني بالدموع لمكان اللوعة مني. وقوله «ومثلاها من الجفن» جفن العين غطاء العين من أعلى وأسفل، والمراد بالجفن هنا العين نفسها. يقول: ومثل عيني تؤاتي بالدمع.

(٤) قوله «تذكّر» بحذف احدى التاءين: أي تتذكّر، والفاعل قوله: «نفسي». وقوله «تبلّد» إنّما هو تتبلّد بحذف إحدى التاءين كذلك، وتتبلّد: أي تلحقهـا حيرة، والتبلّد أيضـاً نقيض التجلّد، وهو استكانة وخضوع.

(٥) مفجّعة: يقال فجّعته المصيبة وفجّعته: أوجعته فهو مفجع أي موجع، والفـاجعة الـرزيّة =

وَمَـا بَلَغتْ مِنْ كُـلِّ أمْـرٍ عَشِيرَهُ
وَلَكِنَّ نَفْسِي بَعْضَ ما فِيهِ تَحْمَدُ[1]

أَطَالَتْ وُقُوفاً تَذْرِفُ العَيْنُ جُهْدَها
على طَلَلِ ٱلْقَبْرِ ٱلَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ

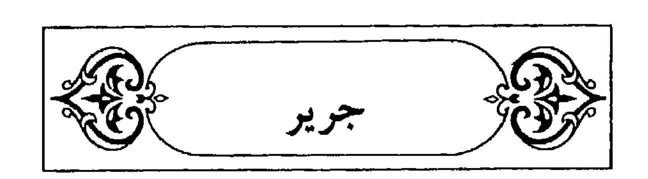
فَبُورِكْتَ يا قَبْرَ الرَّسُولِ وبورِكَتْ
بِلادٌ ثَوَى فيهَا الرَّشيدُ المُسَدَّدُ[2]

=الموجعة التي تفجع الإنسان بما يعزّ عليه من مال أو حميم. شفّه عليه الحزن والهمّ: لذع قلبه وأضمره وهزله حيث رقّ. وهو من قولهم شفّ الثوب إذا رقّ حتى يصف جلد لابسه تعدّد مضارع عدد أي عدّ.

(١) العشير: في الأصل كالعشر: الجزء من أجزاء العشرة، وجمع العشير أعشراء مثل نصيب وأنصباء وقوله بعض ما فيه أي بعض ما في كل أمر.

(٢) المسدّد: يُقال سدّده الله وفّقه للسداد وهو الصواب والقصد من القول والعمل.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



جرير

هو أبو حرزة جرير بن عطيّة (٣٣ هـ/ ٦٥٣ م - ١١٤ هـ/ ٧٣٣ م) اشتهر بالهجاء، وراح يرمي به الخصوم قويًّا شديد اللهجة، فذاع صيته، وردّدت اسمه الركبان. نشبت بينه وبين الفرزدق حرب هجائيّة دامت خمسين سنة، كان الشاعر منهما ينظم القصيدة ويبعث بها إلى خصمه، فينقض الخصم ما قيل فيها بقصيدة ينظمها على الوزن نفسه، والقافية نفسها. وسمِّيت تلك القصائد «النقائض».

له ديوان شعر في المدح، والرثاء، والغزل، والهجاء. ورثاء جرير سواء أكان في ذويه أم في غيرهم، هو رثاء من يشعر بالمصيبة شعوراً عميقاً، فينهدُّ لها كيانه، ثم يطلق اللسان فيما يفيض من القلب، وإذا اللسان ترجمان النفس، والألفاظ أنفاس حارّة، وإذا الشعر يسيل سيلان الدموع المنهمرة، في انسجام، وسهولة، ورقّة؛ وإذا أمامك مشهد مؤلم، هو مشهد تتراءى فيه ذكريات الرجل أحبّةً وصفاتٍ محبّبة إلى كل نفس، وأعمالاً غرّاء؛ وإذا الشاعر ينطلق بين المناجاة، والنداء، ومخاطبة الميت، والأخبار، رائع الأسلوب، عجيب السلاسة؛ وإذا الزفرات المتصاعدة أدعية واستلفاتاً تقف بين المقطع والمقطع، وبين الفكرة والفكرة، شرارات تعصر القلوب وتستقطر الجفون.

ومن قصيدة طويلة وجّهها إلى خصمه الفرزدق هاجياً، افتتحها برثاء امرأته، فقال:

رثاء امرأته

لَــوْلاَ ٱلْـحَيَــاءُ، لَـعَــادَنِي ٱسْـتِـعْـبَــارُ،
وَلَــزُرْتُ بَيْتَــكِ، وَٱلْـحَـبِـيـبُ يُــزَارُ[1]

وَلَــقَــدْ نَــظَرْتُ، وَمَــا تَـمَـتُّـعُ نَــظْرَةٍ
فِي ٱللَّحْـدِ حَيْثُ تَـمَكَّـنَ ٱلْمِـحْفَــارُ[2]

وَلَّــهْـتِ قَــلْبِي، إِذْ عَــلَتْنِــي كَـبْــرَةٌ،
وَذَوُو ٱلـتَّـمَــائِـمِ مِنْ بَـنِيــكِ صِغَــارُ[3]

أَرْعَى ٱلنُّجُــومَ، وَقَــدْ مَضَتْ غَــوْرِيَّــةٌ،
عُـصَـبُ ٱلـنُّـجُــومِ كَــأَنَّـهُـنَّ صُــوَارُ[4]

نِـعْمَ ٱلْـقَــرِيـنُ، وَكُـنْـتِ عِـلْقَ مَـضَـنَّــةٍ
وَأَرَى بِــنَــعْــفِ بُــلَيَّــةَ ٱلأَحْــجَــارُ[5]

عَــمَــرَتْ مُكَــرَّمَــةَ ٱلْـمَسَــاكِ وَفَــارَقَـتْ
مَــا مَــسَّــهَــا صَــلَفٌ وَلاَ إِقْــتَــارُ[6]

---

(١) استعبار: بكاء. بيتك: قبرك.

(٢) المحفار: آلة الحفر.

(٣) ولهة: حزينة أشدّ الحزن. التمائم ج تميمة وهي خرزة أو عوذة تُعلَّق في عنق الولد د للأخطار.

(٤) الغورية: التي تأخذ الغور للغروب والسقوط. العصب: الجماعات. الصوار: قطيع الوحش.

(٥) العلق: النفيس من كل شيء. المضنة: ما يضن به. النعف: أسفل الجبل وأعلى الواد: بلية: اسم موضع.

(٦) الصلف: الكبرياء. الاقتار: العسر.

فَسَقَى صَدَى جَدَثٍ، بِبُرْقَةِ ضَاحِكٍ
هَزِمٌ أَجَشُّ، وَدِيمَةٌ مِدْرَارُ[1]

هَزِمٌ أَجَشُّ، إِذَا ٱسْتَحَارَ بِبَلْدَةٍ
فَكَأَنَّمَا بِجِوَائِهَا ٱلْأَنْهَارُ[2]

مُتَرَاكِمٌ زَجِلٌ يُضِيءُ وَمِيضُهُ
كَٱلْبُلْقِ تَحْتَ بُطُونِهَا ٱلْأَمْهَارُ[3]

كَانَتْ مُكَرَّمَةَ ٱلْعَشِيرِ وَلَمْ يَكُنْ
يَخْشَى غَوَائِلَ أُمِّ حَزْرَةَ جَارُ[4]

وَلَقَدْ أَرَاكِ كُسِيتِ أَجْمَلَ مَنْظَرٍ،
وَمَعَ ٱلْجَمَالِ سَكِينَةٌ وَوَقَارُ

وَٱلرِّيحُ طَيِّبَةٌ إِذَا ٱسْتَقْبَلْتِهَا
وَٱلْعِرْضُ لَا دَنِسٌ وَلَا خَوَّارُ[5]

وَإِذَا سَرَيْتُ، رَأَيْتُ نَارَكِ نَوَّرَتْ
وَجْهاً أَغَرَّ، يَزِينُهُ ٱلْإِسْفَارُ

صَلَّى ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلَّذِينَ تُخُيِّرُوا
وَٱلصَّالِحُونَ عَلَيْكِ، وَٱلْأَبْرَارُ

---

(١) الصدى: كان العرب يعتقدون بأنه يخرج من رأس القتيل طير يسمونه «صدى» يظل عطشان يصيح «اسقوني» حتى يؤخذ بثأره. الهزم: السحاب الراعد. الأجش: الغليظ الصوت من الرعد. برقة ضاحك: اسم موضع.

(٢) الجواء ج جو وهو الناحية والجهة.

(٣) زجل: ذو جلبة، البلق ج أبلق وهو ما كان في لونه سواد وبياض.

(٤) الغوائل: المصائب.

(٥) الخوار: الضعيف.

وَعَلَيْكِ مِنْ صَلَوَاتِ رَبِّكِ كُلَّمَا
نَصِبَ ٱلْحَجِيجُ مُلَبِّدِينَ، وَغَارُوا[1]

يَا نَظْرَةً لَكِ، يَوْمَ هَاجَتْ عَبْرَةً
مِنْ أُمِّ حَزْرَةَ، بِٱلنُّمَيْرَةِ دَارُ

تُحْيِي ٱلرَّوَامِسُ رَبْعَهَا، فَتُجِدُّهُ
بَعْدَ ٱلْبِلَى، وَتُمِيتُهُ ٱلأَمْطَارُ[2]

وَكَأَنَّ مَنْزِلَةً لَهَا، بِحُلاَجِلٍ
وَحْيُ ٱلزُّبُورِ تُجِدُّهُ ٱلأَحْبَارُ[3]

لاَ تُكْثِرَنَّ، إِذَا جَعَلْتَ تَلُومُنِي،
لاَ يَذْهَبَنَّ بِحِلْمِكَ ٱلإِكْثَارُ

كَانَ ٱلْخَلِيطُ هُمُ ٱلْخَلِيطُ، فَأَصْبَحُوا
مُتَبَدِّلِينَ، وَبِٱلدِّيَارِ دِيَارُ

لاَ يَلْبَثُ ٱلْقُرَنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا
لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمِ وَنَهَارُ!

رثاء ابنه

[وقال يرثي ابنه سوادة وقد توفي بالشام]:

قَالُوا: نَصِيبُكَ مِنْ أَجْرٍ فَقُلْتُ لَهُمْ
مَنْ لِلْعَرِينِ، إِذَا فَارَقْتُ أَشْبَالِي؟

---

(١) نصب: تعب. الحجيج ج حاج. ملبدين: مقيمين. غار الرجل: نام.

(٢) الروامس: الرياح.

(٣) الزبور: المزامير. تجده: تكتبه فتحكمه.

لَكِنْ سَوَادَةُ يَجْلُو مُقْلَتَيْ لَحِمٍ
بَازٍ، يُصَرْصِرُ فَوْقَ ٱلْمَرْقَبِ ٱلْعَالِي[1]

قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُهُ مِنِّي، إِذَا غَلِقَتْ
رُهْنُ ٱلْجِيَادِ، وَمَدَّ ٱلْغَايَةَ ٱلْغَالِي[2]

إِلَّا تَكُنْ لَكَ بِٱلدَّيْرَيْنِ بَاكِيَةٌ
فَرُبَّ بَاكِيَةٍ بِٱلرَّمْلِ مِعْوَالِ

كَأُمِّ بَوٍّ عَجُولٍ، عِنْدَ مَعْهَدِهِ،
حَنَّتْ إِلَى جَلَدٍ مِنْهُ وَأَوْصَالِ[3]

تَرْتَاعُ مَا نَسِيَتْ، حَتَّى إِذَا ذَكَرَتْ، رَدَّتْ
هَمَاهِمَ، حَرَّى ٱلْجَوْفِ، مِثْكَالِ[4]

زِدْنَا عَلَى وَجْدِهَا وَجْداً، وَإِنْ رَجَعَتْ،
فِي ٱلْقَلْبِ مِنْهَا خُطُوبٌ ذَاتُ بَلْبَالِ[5]

فَارَقْتَنِي، حِينَ كَفَّ ٱلدَّهْرُ مِنْ بَصَرِي،
وَحِينَ صِرْتُ كَعَظْمِ ٱلرِّمَّةِ ٱلْبَالِي[6]

إِنَّ ٱلثَّوِيَّ بِذِي ٱلزَّيْتُونِ، فَٱحْتَسِبِي،
قَدْ أَسْرَعَ ٱلْيَوْمَ فِي عَقْلِي وَفِي حَالِي[7]

---

(١) باز لحم: يأكل اللحم أو يشتهيه. صرصر البازي: صات. المرقب: الموضع المشرف يعلوه الرقيب.
(٢) غلق الرهن: صار ملك المرتهن.
(٣) البو: ولد الناقة، إذا مات يحشى جلده تبناً فيقرب من أمه، فتخدع وتعطف عليه وتدرّ. الجلد بفتح الجيم واللام: الجلد بكسر الجيم وسكون اللام.
(٤) الهماهم: الأصوات مع بحّة. المثكال: الكثيرة الثكل.
(٥) البلبال: الهم والوسوسة.
(٦) الرمة: ما بلي من العظام.
(٧) الثوي: الميت.

في رثاء معن بن زائدة

كان معن بن زائدة (. . . ـ ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م) من أشهر أجواد العرب، وأحد الشجعان الفصحاء، والولاة المشهورين. عندما توفّي رثاه عدد من الشعراء من بينهم مروان بن أبي حفصة، والحسين بن مطير. قال ابن أبي حفصة في رثائه:

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ وَأَبْقَى
مَكَارِمَ لَنْ تَبِيدَ وَلَنْ تُنَالا
كَأَنَّ آلشَّمْسَ يَوْمَ أُصِيبَ مَعْنٌ
مِنَ الإِظْلامِ مُلْبَسَةٌ ظِلالا
هُوَ آلْجَبَلُ الذي كانَتْ نِزارٌ
تَهُدُّ مِنَ آلْعَدُوِّ بِهِ الجِبَالا
وَعُطِّلَتِ الثُّغُورُ لِفَقْدِ مَعْنٍ
وَقَدْ يَرْوِي بها الأَسَلَ النِّهالا[1]
وَأَظْلَمَتِ العِراقُ وأَوْرَثَتْهَا
مُصِيبَتُهُ المجَلِّلَة آغْتِلالا
وَظَلَّ الشَّامُ يَرْجُفُ جَانِبَاهُ
لِرُكْنِ العِزِّ حِينَ وَهَى فَمَالا
وَكادَتْ مِنْ تُهامَةَ كُلُّ أَرْضٍ
وَمِنْ نَجْدٍ تَزُولُ غَدَاةَ زالا
فإِنْ يَعْلُ البِلَادَ لَهُ خُشُوعٌ
فَقَدْ كانَتْ تَطُولُ بِهِ آخْتِيالا

(١) الثغور: الأماكن المحصنّة على الحدود: الأسل النهال. الرماح العطاش.

أصابَ الموتُ يَـوْمَ أصَاب مَعْنـاً
مِـنَ الأحْيـاءِ أكْـرَمَـهُمْ فَـعَـالا
وكــانَ الـنَّـاسُ كُلُّهُـمُ لِـمَـعْـنٍ
إلـى أنْ زارَ حُـفْـرَتَــهُ عِـيَـالا
وَلَمْ يَـكُ طـالبٌ لِلْعُـرْفِ يَنْـوِي
إلى غَيْـرِ آبْنِ زائـدَةَ آرْتِحـالا[1]
مَضَى مَنْ كانَ يَحْمِلُ كُـلَّ عِبْءٍ
وَيَسْبِـقُ فَضْــلُ نَـائِلِهِ السُّـؤالا
وَمــا كَـانَتْ تَجِفُّ لَــهُ جِيَــاضٌ
مِنَ المعـــروفِ مُتْـرَعَــةٌ سجـالا
مَضَى لِسَبِيلِهِ مَنْ كُنْـتَ تَـرْجُــو
بِــهِ عَثَــراتِ دَهْــرِكَ أنْ تُقــالا
فَلَسْتَ بمــالِــكٍ عَبَــراتِ عَـيْنٍ
أبَتْ بِــدُمُــوعِهــا إلّا آنْـهِمَــالا
وَقُلْنَــا أيْنَ نَــرْحَــلُ بَعْــدَ مَعْنٍ
وَقَــدْ ذَهَبَ النَّـوَالُ فــلا نَـوَالا؟
سَيَـذْكُـرُكَ الخَلِيفَــةُ غَيْـرَ قَــالٍ
إذا هُـوَ في الأُمُورِ بـلا الـرِّجـالا
ولا يَـنْـسَـى وَقَــائِعَــكَ الـلَّوَاتِي
على أعْــدَائِــهِ جُعِـلَتْ وَبَــالا.

---

(١) العرف: العمل الطيّب.

وقال الحسين بن مطير:

أَلِـمَّـا عـلى مَـعْـنٍ وَقُـولا لِـقَـبْـرِهِ
سَقَتْـكَ الغَـوَادِي مَـرْبَعـاً ثُـمَّ مَـرْبَعَـا

فَـيَـا قَبْـرَ مَـعْـنٍ كَيْـفَ وارَيْـتَ جُـودَهُ
وَقَـدْ كَـانَ منـه البَحْـرُ والبَـرُّ مُتْـرَعَـا

وَيـا قَـبْـرَ مَـعْـنٍ أنْـتَ أوَّلُ حُـفْـرَةٍ
مِنَ ٱلأرْضِ خُـطَّتْ للمكـارِمِ مَضْجَعَـا

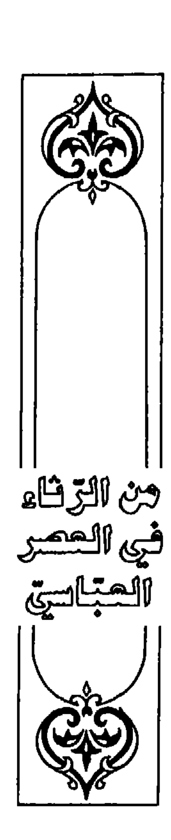
بَلَى قَـد وَسِعْتَ الجـودَ والـجـودُ مَيِّـتٌ
ولـو كـانَ حَيّـاً ضُقْتَ حتّى تَصَـدَّعـا

فَتًى عِـيشَ في مَـعْـرُوفِـهِ بَعْـدَ مَـوْتِـهِ
كمـا كـانَ بَعْـدَ السَّيْـلِ مَجْـرَاهُ مَـرْتَعَـا

ولمّـا مَضَى مَعْنٌ مَضَى الجُـودُ وَٱنْقَضَى
وَأصْبَـحَ عِـرْنينُ المـكـارم أجْـدَعـا[1]

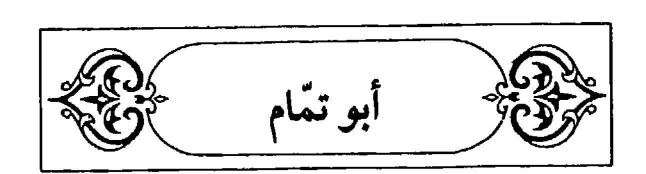
---

(١) العرنين: الأنف. جدع أنفه: أي أذّله.



من الرثاء في العصر العباسي





أبو تمّام

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائيّ (١٨٨ هـ/ ٨٠٤ م - ٢٣١ هـ/ ٨٤٦ م) شاعر، وأديب، وأحد أمراء البيان. ولد في جاسم من قرى حوران بسورية، ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه، وقدّمه على شعراء وقته، فأقام في العراق، ثمّ ولي بريد الموصل، فلم يتمّ سنتين حتى توفّي بها. في شعره قوّة وجزالة، واختُلف في التفضيل بينه وبين المتنبّي والبحتري.

له ديوان شعر في مختلف الفنون الأدبيَّة الغنائيَّة التي عرفها العرب. من أشهر مراثيه تلك التي رثا بها محمد بن حميد الطوسيّ، أحد قوّاد جيش المأمون العبّاسيّ. قال فيها:

كَــذَا فَلْيجِلَّ الخَــطْبُ وَلْيَفْــدَحِ الأَمْــرُ
فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَـمْ يَفْضِ مَــاؤُهـا عُــذْرُ[1]
تُــوُفِّــيَــتِ الآمَــالُ بَــعْــدَ مُــحَــمَّــدٍ
وَأَصْبَحَ في شُغْلٍ عَنِ السَّفَــرِ السَّفْــرُ[2]

(١) يجلّ: يعظم. ويفدح: يثقل ويصعب.
(٢) السفر: قطع المسافة. والسفر المسافرون.

وما كـانَ إلاَّ مـالَ مَـنْ قَـلَّ مـالُـهُ
وَذُخْـراً لِـمَـنْ أَمْـسَـى وَلَـيْس لَـهُ ذُخْـرُ
وَمَـا كـانَ يَـدْرِي مُجْتَـدِي جُـودِ كَفِّـهِ
إذا مـا استهـلَّتْ أَنَّـهُ خُلِقَ الـعُـسْـرُ[1]
ألا فـي سبيـلِ ٱلـلَّهِ مَنْ عَـطَّلَتْ لَـهُ
فِـجـاجُ سبيـلِ ٱللَّهِ وانْـثَغَـرَ الـثَّغْـرُ[2]
فَـتًى كُـلَّمـا فـاضَتْ عُـيـونُ قَـبـيـلَةٍ
دَمـاً ضَحِكَتْ عَنْهُ الأحـاديثُ والـذِّكْـرُ
فـتًى دَهْـرُهُ شَـطرانِ فـيـمـا يَـنُـوبُـهُ
ففي بَـأْسِـهِ شَـطْرٌ وفي جُـودِهِ شَـطْرُ
فتًى مـاتَ بينَ الـطَّعْنِ والضَّـرْبِ مِيتَـةً
تَقُـومُ مقـامَ النَّصْـرِ إنْ فـاتَـهُ الـنَّصْـرُ
ومـا مـاتَ حتَّى مـاتَ مضـرَبُ سَيْفِـهِ
مِنَ الضَّـرْبِ واعْتَلَّتْ عليـهِ القَنـا السُّمْرُ
وقـد كـانَ فـوتُ المـوتِ سهـلاً فـردَّهُ
إليـهِ الحفـاظُ المـرُّ والخُلُقُ الـوَعْـرُ[3]
وَنَـفْسٌ تَـعـافُ الـعـارَ حَـتَّـى كـأنَّـمـا
هُـو الكُفْرُ يـومَ الـرَّوعِ أو دُونَـهُ الكُفْـرُ[4]

(١) المجتدي: الطالب الجدوى أي العطيّة.
(٢) الفجاج: جمع فجّ وهو الطريق الواسع.
(٣) الحفاظ: الذبّ عن المحارم، والمواظبة على العمل. والوعر: الصعب.
(٤) تعاف: تكره. والروع: الحرب.

فَأَثْبَتَ في مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ
وَقالَ لها مِنْ تَحْتِ أَخْمُصِكِ الحَشْرُ[1]

غَدا غَدْوةً والحَمْدُ نَسْجُ رِدائِهِ
فَلَمْ يَنْصَرِفْ إلاَّ وَأَكْفانُهُ الأَجْرُ

تَردَّى ثيابَ الموتِ حُمْراً فما دَجى
لها اللَّيلُ إلاَّ وهيَ من سُندسٍ خُضْرُ

كَأَنَّ بني نَبهانَ يَومَ وفاتِهِ
نُجومُ سماءٍ خَرَّ من بينها البَدْرُ[2]

يُعزَّون عن ثاوٍ تُعزَّى بِهِ العُلى
ويَبكي عليهِ البَأْسُ والجودُ والشِّعْرُ

وَأَنَّى لَهُمْ صَبْرٌ عَلَيْهِ وَقَدْ مضى
إلى الموتِ حَتَّى اسْتُشْهِدَا هُو والصَّبْرُ

فتًى كانَ عَذْبَ الروحِ لا من غَضاضَةٍ
ولكنَّ كِبراً أَنْ يقالَ بهِ كِبْرُ

فتًى سَلَبَتْهُ الخيلُ وَهو حِمًى لها
وبزَّتْه نارُ الحَرْبِ وَهْوَ لها جَمْرُ[3]

وَقَدْ كانَتِ البيضُ المآثيرُ في الوَغى
بواترَ فهي الآنَ من بَعْدِهِ بُتْرُ[4]

---

(١) الأخمص: ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.

(٢) خرّ: سقط.

(٣) بزت: سلبتهُ.

(٤) المآثير: السيوف التي في متونها أثرٌ. والبواتر: القواطع. والبتر: المقطوعة.

أمِنْ بَعْدِ طَيِّ الحادِثاتِ مُحَمَّداً
يَكونُ لأثوابِ النَّدَى أبَداً نَشْرُ
إذا شَجَراتُ العُرْفِ جُذَّتْ أصولُها
ففي أيِّ فرعٍ يُوجدُ الورقُ النَّضْرُ[1]
لَئِنْ أُبْغِضَ الدَّهْرُ الخَؤُونُ لِفَقدِهِ
لَعَهْدِي بِهِ مِمَّنْ يُحَبُّ لَهُ الدَّهْرُ
لَئِنْ غَدَرَتْ في الرَّوعِ أيَّامُهُ بِهِ
فما زالتِ الأيَّامُ شيمَتُها الغَدْرُ[2]
لَئِنْ أُلْبِسَتْ فيهِ المصيبةَ طَيِّئٌ
فما عَرِيتْ منها تميمٌ ولا بكْرُ
كذلِكَ ما نَنْفَكُّ نَفْقُدُ هالِكاً
يشارِكُنا في فَقْدِهِ البدوُ والحضْرُ
سَقَى الغيثُ غيثاً وَارَتِ الأرضُ شَخْصَهُ
وإنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ سَحابٌ ولا قَطْرُ[3]
وَكَيْفَ احتمالي للغُيوثِ صَنيعَةً
بإسْقائِها قَبْراً وفي لَحْدِهِ البَحْرُ
مَضَى طاهِرَ الأثْوَابِ لم تَبْقَ رَوْضَةٌ
غداةَ ثَوَى إلاّ اشْتَهَتْ أنَّها قَبْرُ[4]

(١) جذت: قطعت.

(٢) الشيمة: العادة والطبيعة.

(٣) وارت: أخفت.

(٤) ثوى: مات.

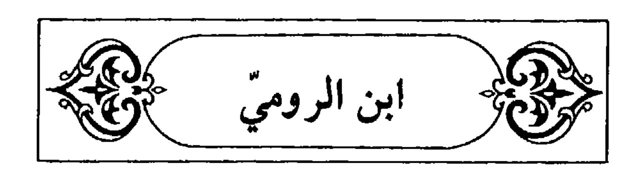
ثَـوَى في الثَّرى من كـانَ يَحْيـا بِـهِ الثَّـرَى
وَيْغَمُـرُ صرفَ الـدهـر نـائِلُهُ الغَمْـرُ[1]
عـليـكَ سـلامُ آلـلَّهِ وَقْـفـاً فـإِنَّنِـي
رَأَيـتُ الكَـريـمَ الحُـرَّ لَـيْسَ لَـهُ عُمْـرُ

وقال يرثي أخاه:

إنِّـي أَظُـنّ الـبِـلَى لـو كـانَ يَـفْـهَـمُـه
صَــدَّ البِلَى عَنْ بَقَـايَـا وَجْهِـهِ الحَـسَنِ
يـا يَـوْمَـهُ لـم تَـدَعْ حُسْنـاً ولا أَدَبـاً
إلاّ حَـكَـمْـتَ بِـهِ لِلَّحْـدِ وَالـكَـفَـنِ
لِـلَّهِ مُـقْـلَتُـهُ! والـمـوتُ يَـكْـسِـرُهـا
كَـأَنَّ أَجْفَـانَـهُ سَكْـرَى مِنَ الـوَسَنِ
يَـرُدُّ أَنْـفَـاسَـهُ كَـرْهـاً وَتَـعْـطِفُـهـا
يَـدُ المَنِيَّـةِ عَـطْفَ الـرِّيـحِ لِلْغُـصُنِ
يـا هَـوْلَ مـا أَبْصَـرَتْ عَيني ومـا سَمِعتْ
أُذْنـي فـلا أَبْـصَـرَتْ عَـيْـنـي ولا أُذُني
لَـمْ يَبْـقَ مِنْ بَـدَني جُـزْءٌ عَـلِمْـتُ بِـهِ
إلاّ وَقَـدْ حَـلَّهُ جُـزْءٌ مِـنَ آلْـحَـزَنِ
كـانَ الـلَّحـاقُ بِـهِ أَهْنـا وَأَحْـسَنَ بـي
مِنْ أَنْ أَعيشَ سَقيمَ الـرّوحِ والبَـدَنِ.

(١) الغمر: الكثير.





هو أبو الحسن عليّ بن العبّاس بن جُريج (٢٢١ هـ/ ٨٣٥ م - ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م). ولد في بغداد من أب روميّ، وأمّ فارسيَّة. أكبّ على تحصيل العلم حتّى استقامت له ثقافة واسعة من لغة وأدب وفلسفة ودين. توالت المِحَن عليه، فمات والده وهو حَدَث، ومات أخوه في شبابه، ومات أبناؤه الثلاثة، وماتت زوجته، والتهبت النيران بعض أملاكه، واغتصب الظلم البعض الآخر.

له ديوان ضخم من الشعر عالج فيه جميع الموضوعات الشائعة عند العرب. وفي الرثاء يندفق ابن الروميّ اندفاقاً لأنّه يرثي من يحبّ، ويرثي في حالة من الانفعال شديدة، وفي حالة من الحزن المتجمّع المتراكم شديدة أيضاً. وكان يخاطب الميت في لهفة المحبّة ولوعة الفراق، ويسكب نفسه عليه حسرة، ويُفصِّل ما يعانيه من شقاء بعد فراقه، فيذكر آلامه، ووحشته، وسهرة في ظلمات الليالي، ودموعه المتساقطة في غزارة وحرارة، ويذكر كيف مات الفقيد، وكيف زالت بالموت صفاته، فيتحسَّر عليها تحسّراً يكسر القلب، وقد يخاطب تلك الصفات، ويذرف عليها العبرات، والذي يقرأ شعره يحزن للشاعر وسوء حاله أكثر مِمّا يحزن للفقيد.

رثاء ابنه الثالث

أُبُــنَــيَّ! إِنَّكَ وَٱلْعَزَاءَ، مَعــاً،
بِــٱلأَمْسِ لُـفَّ عَلَيْكُمَــا كَـفَنُ
تَــاللّٰهِ، لاَ تَنْفَــكُّ لِي شَجَنــاً،
يَمْضِي ٱلـزَّمَانُ، وَأَنْتَ لِي شَجَنُ
مَــا أَصْبَحَتْ دُنْيَايَ لِي وَطَنــاً،
بَـلْ حَيْثُ دَارُكَ، عِنْدِيَ ٱلْـوَطَنُ
مَا فِي ٱلنَّهَارِ، وَقَدْ فَقَدْتُـكَ، مِنْ
أُنْسٍ، وَلاَ فِي ٱللَّيْلِ لِي سَكَنُ[1]
وَلَـقَــدْ تُسَـلِّي ٱلْقَـلْبَ ذُكْــرَتُــهُ
أَنِّي بِــأَنْ أَلْـقَــاكَ مُــرْتَـهَـنُ[2]
أَوْلاَدَنَــا! أَنْــتُــمْ لَــنَــا فِـتَــنٌ!
وَتُفَــارِقُــون، فَــأَنْتُمْ مِحَـنٌ![3]

رثاء ولده الأوسط

بُكَـاؤُكُمَـا يَشْفِي، وَإِنْ كَــانَ لاَ يُجْـدِي،
فَجُـودَا، فَقَـدْ أَوْدَى نَـظِيـرُكُمَــا عِنْـدِي[4]
أَلاَ قَــاتَــلَ ٱلـلّٰهُ ٱلْـمَـنَــايَــا وَرَمْـيَـهَــا،
مِنَ ٱلْقَـوْمِ، حَبَّـاتِ ٱلْقُلُوبِ، عَلَى عَمْـدِ

(١) السكن: الاستئناس.
(٢) ذكرته: أي تذكر القلب. مرتهن: مقيد.
(٣) الفتن: موضوع إعجاب وحب شديد يبلغ الجنون.
(٤) بكاؤكما: خطاب لعينيه.

تَـوَخَّى حِمَـامُ ٱلْمَـوْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِـي،
فَـلِلَّهِ، كَيْـفَ ٱخْتَـارَ وَاسِـطَةَ ٱلْـعِقْـدِ[1]

عَلَى حِينَ شِمْتُ ٱلْخَيْـرَ مِنْ لَمَحَـاتِـهِ،
وَآنَسْتُ مِنْ أَفْعَـالِـهِ آيَـةَ ٱلـرُّشْـدِ[2]

طَـوَاهُ ٱلـرَّدَى عَنِّي، فَـأَضْحَى مَـزَارُهُ
بَعِيـداً عَلَى قُـرْبٍ، قَـرِيبـاً عَلَى بُعْـدِ

لَقَـدْ أَنْجَزَتْ فِيـهِ ٱلْمَنَـايَـا وَعِيدَهَـا،
وَأَخْـلَفَـتِ ٱلآمَـالُ مَـا كَـانَ مِنْ وَعْـدِ

لَقَـدْ قَـلَّ بَيْنَ ٱلْمَهْـدِ وَٱللَّحْـدِ لَبْثُـهُ،
فَلَمْ يَنْسَ عَهْدَ ٱلْمَهْدِ، إِذْ ضُمَّ فِي ٱللَّحْـدِ

أَلَـحَّ عَـلَيْـهِ ٱلـنَّـزْفُ، حَتَّـى أَحَـالَـهُ
إِلَى صُفْـرَةِ ٱلْجَادِيِّ عَنْ حُمْـرَةِ ٱلْـوَرْدِ[3]

وَظَـلَّ عَـلَى ٱلأَيْـدِي تَسَـاقَطُ نَـفْسُـهُ،
وَيَذْوِي كَمَا يَذْوِي ٱلْقَضِيبُ مِنَ ٱلرَّنْـدِ[4]

فَـيَـا لَـكَ مِنْ نَـفْسٍ تَسَـاقَطُ أَنْـفُسـاً
تَـسَـاقُطَ دُرٍّ مِـنْ نِـظَامٍ بِـلاَ عَـقْـدِ

عَـجِبْتُ لِقَـلْبِي كَيْـفَ لَـمْ يَـنْـفَـطِرْ لَـهُ
وَلَـوْ أَنَّـهُ أَقْسَى مِنَ ٱلْحَجَـرِ ٱلصَّـلْدِ[5]

---

(١) واسطة العقد: الجوهرة التي في وسطه.

(٢) شمت: رأيت. آنست: نظرت. الآية: العلامة.

(٣) الجادي: الزعفران.

(٤) يدوي: يذبل. الرند: شجر طيب الرائحة.

(٥) ينفطر: ينشق. الصلد: الصلب.

وَمَا سَرَّنِي أَنْ بِعْتُهُ بِثَوَابِهِ

وَلَوْ أَنَّهُ ٱلتَّخْلِيدُ فِي جَنَّةِ ٱلْخُلْدِ

وَلَا بِعْتُهُ طَوْعاً وَلَكِنْ غُصِبْتُهُ

وَلَيْسَ عَلَى ظُلْمِ ٱلْحَوَادِثِ مِنْ مُعْدِ[1]

وَإِنِّي وَإِنْ مُتِّعْتُ بِٱبْنَيَّ بَعْدَهُ

لَذَاكِرُهُ مَا حَنَّتِ ٱلنِّيبُ فِي نَجْدِ[2]

وَأَوْلَادُنَا مِثْلُ ٱلْجَوَارِحِ أَيُّهَا

فَقَدْنَاهُ كَانَ ٱلْفَاجِعَ ٱلْبَيِّنَ ٱلْفَقْدِ

لِكُلٍّ مَكَانٌ لَا يَسُدُّ ٱخْتِلَالَهُ

مَكَانُ أَخِيهِ مِنْ جَزُوعٍ وَلَا جَلْدِ[3]

هَلِ الْعَيْنُ بَعْدَ ٱلسَّمْعِ تَكْفِي مَكَانَهُ

أَمِ ٱلسَّمْعِ بَعْدَ ٱلْعَيْنِ يَهْدِي كَمَا تَهْدِي

لَعَمْرِي لَقَدْ حَالَتْ بِيَ ٱلْحَالُ بَعْدَهُ فَيَا

لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَالَتْ بِهِ بَعْدِي

ثَكِلْتُ سُرُورِي كُلَّهُ إِذْ ثَكِلْتُهُ

وَأَصْبَحْتُ فِي لَذَّاتِ عَيْشِي أَخَا زُهْدِ[4]

أَرَيْحَانَةَ ٱلْعَيْنَيْنِ وَٱلْأَنْفِ وَٱلْحَشَا

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرْتَ عَنْ عَهْدِي

---

(١) المعدي: المعين.

(٢) النيب: ج ناب وهي الناقة المسنة.

(٣) الجزوع: الفاقد الصبر.

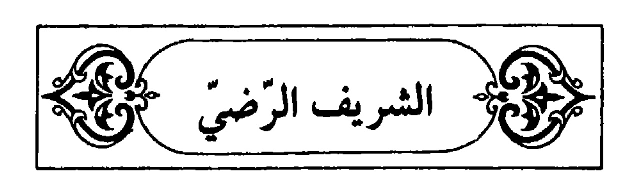
(٤) ثكلت: فقدت.

سَــأَسْقِيـكَ مَــاءَ ٱلْعَيْنِ مَـا أَسْعَــدَتْ بِـهِ
وَإِنْ كَـانَتِ ٱلسُّقْيَا مِنَ ٱلْعَيْنِ لَا تُجْـدِي[1]
أَعَيْنَــيَّ جُــودَا لِي فَـقَــدْ جُــدْتُ لِلثَّــرَى
بِــأَنْفَسَ مِمَّــا تَسَــأَلَانِ مِنَ ٱلــرِّفْــدِ[2]
كَــأَنِّيَ مَــا ٱسْتَمْتَعْتُ مِنْــكَ بِضَمَّــةٍ
وَلَا شَـمَّــةٍ فِي مَلْعَـبٍ لَــكَ أَوْ مَــهْــدِ
أَلَامُ لِـمَــا أُبْــدِي عَـلَيْــكَ مِـنَ ٱلْأَسَى
وَإِنِّي لَأُخْفِي مِنْــكَ أَضْعَـافَ مَــا أُبْــدِي
مُــحَـمَّــدُ، مَــا شَــيْءٌ تُــوُهِّــمَ سَــلْوَةً
لِــقَـلْبِــيَ إِلَّا زَادَ قَـلْبِــي مِــنَ ٱلْــوَجْــدِ
أَرَى أُخَــوَيْــكَ ٱلْبَــاقِيَــيْنِ كِلَيْــهِـمَــا
يَكُــونَــانِ لِـلْأَحْــزَانِ أَوْرَى مِنَ ٱلــزَّنْـدِ[3]
إِذَا لَــعِـبَــا فِــي مَلْعَــبٍ لَـكَ لَــذَّعَــا
فُــؤَادِيَ بِمِثْـلِ ٱلنَّــارِ عَنْ غَيْـرِ مَــا قَصْـدِ
فَـمَــا فِيـهِـمَــا لِي سَـلْوَةٌ بَــلْ حَــرَارَةٌ
يَهِيجَــانِهَــا دُونِـي وَأَشْقَـى بِهَــا وَحْــدِي
وَأَنْــتَ وَإِنْ أُفْــرِدْتَ فِــي دَارِ وَحْــشَــةٍ
فَــإِنِّي بِــدَارِ ٱلْأُنْسِ فِي وَحْـشَــةِ ٱلْفَــرْدِ
عَـلَيْــكَ سَــلَامُ ٱللَّهِ مِنِّي تَـحِيَّــةً وَمِـنْ
كُــلِّ غَيْثٍ صَــادِقِ ٱلْبَــرْقِ وَٱلــرَّعْــدِ

---

(١) أسعدت بالدمع: ساعدت.
(٢) الرفد: الجود والعطاء.
(٣) أورى: أكثر إيقاداً وإشعالاً. الزند: حديدة من فولاذ تضرب بحجر صوان فينقدح النار.





الشريف الرّضيّ

هـو أبـو الحسن محمـد بن الحسين (٣٥٩ هـ/ ٩٧٠ م - ٤٠٦ هـ/ ١٠١٦ م). ولد في بغداد من أصل شريف يرتقي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب. كان يطمح إلى الخلافة، ويُطمعه فيها الكاتب المشهور أبو إسحاق الصابيّ. تولّى إمارة الحجّ، وشهد مواسم العيد، وفيها النساء الوافدات من جميع البلدان. فحرّك المشهد أوتار قلبه، فنظم قصائد شهيرة في الغزل العفيف عُرفت بالحجازيّات.

ومات الصابي سنة ٣٨٤، هـ وكان رئيس الكتّاب في ديوان الخلافة العبّاسية، وأحد المشهود لهم بحسن الرأي وبلاغة الإنشاء. فرثاه الشريف الرضي بهذه القصيدة العامرة، وهي أكثر من ثمانين بيتاً، نثبت منها ما يلي:

أَعَلِمتَ مَنْ حُملوا على الأَعْـوادِ
أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبا ضياءُ النّـادي

جَبَلٌ هَوَى لَوْ خَرَّ فِي البَحْرِ آغْتَدَى
مِـنْ وَقْعِـهِ مُـتَـتَـابِـعَ الإِزْبـادِ

ما كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ دَفْنِكَ في الثّرى
أَنَّ الثَّـرَى يَعْـلُو على الأَطْـوادِ

بُعْـداً لِيَوْمِـكَ في الـزَّمـانِ فَـإِنَّـهُ
أَقْذَى العُيونَ وَفَتَّ في الأَعْضَادِ[1]

لا يَنْفَـدُ الدَّمْـعُ الـذي يُبْكِى بِـهِ
إِنَّ الـقُـلوبَ لَـهُ مِـنَ الأَمْـدَادِ

أَعْـزِزْ عليَّ بأَنْ يفـارِقَ نـاظـرِي
لَمَعَـانُ ذاكَ الكـوكَبِ الـوَقَّـادِ

أَعْـزِزْ عليَّ بـأَنْ نَـزلْتَ بِمَنْـزِلٍ
مُتَشـابِـهِ الأَمجـادِ وَالأَوْغَـادِ[2]

مَنْ للبـلاغَةِ والفصـاحَةِ إِنْ هَمَى
ذاكَ الغمامُ وَعَبَّ ذاكَ الوادي[3]

مَنْ للممـالـكِ لا يـزالُ يلمُّهـا
بِسِـدادِ أَمْـرٍ ضـائِـعٍ وسِـدادِ

إِنَّ الـدُّمـوعَ عَلَيـكَ غَيْـرُ بَخيلَةٍ
وَالقَلْبُ بـالسُّلْوانِ غَيْـرُ جَـوادِ

سَوَّدْتَ ما بَيْنَ الفضـاءِ وناظـري
وَغَسَلْتَ مِنْ عَيْنَيَّ كُـلَّ سـوادِ[4]

ماذا الذي حَبَسَ الجوادَ عَنِ المدى
مِنْ بَعْـدِ سَبْقَـتِـهِ إلى الآمـادِ

---

(١) فت في عضده: أضعفه.

(٢) أي القبر الذي لا فرق فيه بين الأمجاد والأوغاد.

(٣) إذا سال غمام الفصاحة وطغى واديها.

(٤) أي من كثرة البكاء.

مـاذا الذي فَجَـعَ الهمـامَ بـوَثْبَـةٍ

وعـدا على دَمِهِ وكـان العادي[1]

يـا لَيْتَ أنّي ما اقْتَنَيْتُـكَ صاحبـاً

كَمْ قِنْيَـةٍ جَلَبَـتْ أسًى لِـفُؤادِي

بَـرْدُ القلوبِ بمَنْ تُحِبُّ لِقـاءَهُ

مِمَّـا يَجـرُّ حـرارَةَ الأكْبـادِ[2]

لا تـطلبي يـا نفسُ خـلًا بَعْـدَهُ

فَـلَمِثْـلُهُ أعيـا عـلى الـمـرتـادِ

إنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أُسرتِي وَعَشِيرتي

فَـلأَنْتَ أعْلَقُـهُمْ يَـداً بـودادي

ضاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بَعْدَكَ كُلُّهَـا

وَتَـرَكْتَ أضيقَهـا عَلَيَّ بـلادي

لَـكَ في الحشا قبـرٌ وإنْ لَمْ تَأْوِهِ

وَمِنَ الـدّمـوعِ رَوائِحٌ وغـوادي

ما ماتَ مَنْ جَعَلَ الزمـانَ لِسانَـهُ

يَتْلو منـاقِبَ عـوْداً وبـوادي[3]

فـاذْهَبْ كما ذَهَبَ الـربيعُ وَإثْـرُهُ

بـاقٍ بكُـلِّ خمَـائِـلٍ وَنجـادِ

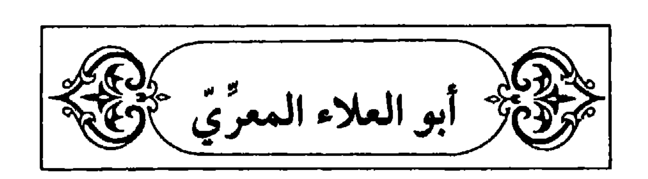
(١) ما هذا الذي وثب على الهمام وغلبه وقد كان أبداً هو الغالب.

(٢) غبطة القلب بالمحبوب هي سبب الألم والحزن عند فراقه.

(٣) ما مات من يعيد الزمان دائماً ذكرى مناقبه.

وسقـاكَ فَضْلَكَ إِنَّـهُ أروى حيـاً
مِنْ رائِـحٍ مُتَعَـرِّسٍ أَوْ غـادِ[1]
جَدَثٌ ـ على أَنْ لا نباتَ بِأَرْضِهِ ـ
وَقَـفَتْ عَـلَيْـهِ مـطالِبُ الـرُّوّادِ

(١) فضلك أروى من السحاب الرائح والغادي .



أبو العلاء المعرّي

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان (٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ م - ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م) شاعر فيلسوف. ولد ومات في معرّه النعمان. أصيب بالجدريّ صغيراً، فعمي في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. له ديوان شعريّ ضخم، وعدد كبير من المؤلّفات.

من أشهر قصائده تلك التي رثى بها صديقه الفقيه الشاعر أبو الخطاب محمد الجبليّ، قال فيها(*):

غَيرُ مُجْدٍ في ملّتي واعْتِقَادي
نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ
وَشَبيهٌ صوتُ النَّعِيِّ إذا قيسَ
بصَوْتِ البَشيرِ في كُلِّ نادِ
أَبَكَتْ تِلْكُمُ الحمامَةُ أمْ
غَنَّتْ على فَرْعِ غُصْنِها المَيّادِ
صاحِ هذي قُبورُنا تَمْتَلأُ الرُّحْبَ
فَأَيْنَ القُبورُ مِنْ عَهْدِ عادِ
خَفِّفِ الوَطْءَ ما أَظُنُّ أَدِيمَ الـ
أَرْضِ إلاّ مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ

(*) في القصيدة عدد من الأبيات المدوّرة.

وَقَبيحٌ بنا وإنْ قَدمَ العَهْدُ

هَوانُ الآباءِ والأَجْدادِ

سِرْ إنِ اسْطَعْتَ في الهواءِ رُويداً

لا اخْتيالاً على رُفات العبادِ

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صارَ لَحْداً مِراراً

ضاحِكٍ مِنْ تَزاحُمِ الأَضْدادِ

وَدَفِينٍ على بقايا دفينٍ

في طويلِ الأَزمانِ والآبادِ

فاسْأَلِ الفَرْقَدَيْنِ عَمَّنْ أَحَسّا

مِنْ قبيلٍ وآنَسا مِنْ بلادِ[1]

كَمْ أَقامَا على زوالِ نهارٍ

وأَنَارَا لِمُدْلجٍ في سَوادِ

تَعَبٌ كُلُّها الحياةُ فما أُعجَبُ

إلاّ مِنْ راغبٍ في ازديادِ

إنَّ حُزْناً في ساعةِ الموتِ أَضعا

فُ سرورٍ في ساعةِ الميلادِ

خُلِقَ الناسُ للبَقاءِ فَضَلَّتْ

أُمَّةٌ يَحْسَبونَهُمْ للنَّفادِ

إنَّمَا يُنْقَلونَ مِنْ دارِ أَعما

لٍ إلى دارِ شقوةٍ أَوْ رَشَادِ

* * *

(١) اسأل هذين الكوكبين عما عرفاه وشهداه من أحوال الناس.

أبنــاتِ الهــديــلِ أسْعِــدْنَ أو
عِــدْنَ قليلَ العَـزاءِ بـالإسعـادِ[1]
إيــهِ لـلّهِ دَرُّكُـنَّ فــأنْــتُـنَّ الـلـ
ـواتِـي تُـحسِـنَّ حِــفْظَ الــودادِ
ما نَسِيتُنَّ هالكاً في الأوانِ الخالِ
أوْدَى مـن قَبْــلِ هُـلْكِ إيــادِ[2]
بَيْــدَ أنّي لا أرْتَـضي مــا فعلـ
ـتُـنَّ وأطـواقُكُـنَّ في الأجيــادِ
فـتسلّيْنَ واسْـتعَـرْنَ جَـمِـيعــاً
مِنْ قميصِ الـدُّجى ثيابَ حِـدادِ
ثُمَّ غَــرِّدْنَ في المـآتمِ وانْــدُبْنَ
بِشَجْــوٍ مَــعَ الغــواني الخِــرادِ

* * *

قَصَدَ الدَّهْـرُ من أبي حمزةَ الأوّا
بِ مَولى حِجًى وخِدْنَ اقْتصادِ[3]
أنْفَقَ العُمْـرَ نـاسِكـاً يَطْلُبُ العِلْـ
ـمَ بــكشفٍ عن أصـله وانتـقــادِ
ذا بــنــانٍ لا تَـلْمسُ الــذَّهَــبَ
الأحْمَرَ زُهْداً في العَسْجَدِ المُسْتَفَادِ[4]

* * *

(١) بنات الهديل: الحمام. واسعدن أي ساعدن.
(٢) إشارة إلى أن الحمام لا تزال وفية تبكي هديلها الذي هلك سابقاً.
(٣) أي إصابة الدهر وكان صاحب عقل وصلاح.
(٤) العسجد: الذهب.

وَدِّعا أَيُّهَا الحَفِيّانِ ذَاكَ الشَّخْصَ
إنَّ الـــــوَداعَ أَيْـسَـرُ زادِ
وَاغْسِلاَهُ بالـدَّمْعِ إنْ كـانَ طُهراً
وَادْفِـنـاهُ بيـنَ الحَشَى والـفُـؤادِ
وَاحْبِـواهُ الأَكْفَــانَ مِـنْ وَرَقِ
المُصْحَفِ كبراً عَنْ أَنْفَسِ الأَبْرَادِ
وَاتْـلُوَا النعشَ بـالقـراءَةِ والتَّـ
ـسبيـحِ لا بـالنَّحيبِ والتَّعْـدَادِ
أَسَفٌ غَيْـرُ نـافـعٍ واجْـتِهَـادٌ
لا يـؤدِّي إلى غَـنـاءِ اجْـتـهـادِ
طـالمـا أَخْـرجَ الحـزينَ جـوَى
الحُـزْن إلى غيـرِ لائقٍ بـالسَّـدادِ
مثلمــا فـاتَتِ الصَّـلاةُ سليمـانَ
فَـأنْحى عـلى رقـابِ الجِيـاد
وَهْوَ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الإِنْسُ والجِنُّ
بِـمـا صَحَّ مِنْ شهـادةِ صادِ(١)

* * *

كَيْفَ أَصْبَحْتَ في مَحَلِّكَ بَعْدي
يـا جَـديـراً مِنِّي بِحُسْنِ افْتِقَـادِ
قَـدْ أَقَـرَّ الـطَّبيبُ عَنْـكَ بِعَجْـزٍ
وَتَـقَـضَّـي تَـرَدُّدُ الـعُـوّادِ

---

(١) صاد: سورة في القرآن . ويقصد بهذا البيت وما قبله أن الحزن قد يخرج الإنسان عن صوابه كما فعل النبي سليمان من ضرب الخيل لما عرضت عليه فاشتغل بها حتى فاتته الصلاة. وهو الذي شهد له في سورة «ص» إذ قيل ﴿فسخرنا له الريح﴾ الآية.

وَانْتَهى اليأسُ مِنْكَ واسْتَشْعَرَ الوَجْـدُ

بِــأَنْ لا مَــعــادَ حتَّى المعادِ[1]

هَجَـدَ السّـاهِـرونَ حـولَـكَ للتمـ

ـــريضِ وَيْـحٌ لأَعْيُنِ الهُجَّـادِ

كُـنْتَ خِـلَّ الـصِّبـا فَلَمّـا أراد

البيـنَ وافَقْتَ رَأْيَهُ في المُرادِ[2]

وَرَأَيْتَ الـوفـاءَ للصّـاحِبِ الأوَّ

لِ مِنْ شِيمةِ الكَـريمِ الجـوادِ

وَخَلَعْتَ الـشَّبـابَ غَـضّـاً فَيَـا

لَـيْتَـكَ أَبْلَيْتَـهُ مَـعَ الأَنْـدادِ

فـاذْهَبـا خَيْـرَ ذاهـبيْـن حقيقـ

ـيـن بسُقْيـا رَوائـحٍ وَغَـوادِ

وَمِـراثٍ لـو أَنَّـهُـنَّ دُمـوعٌ

لَمَحَـوْنَ السُّـطورَ في الإِنْشـادِ

* * *

زُحَـلٌ أَشْـرَفُ الكَـواكِبِ داراً

مِنْ لِقَـاءِ الـرَّدَى عـلى ميعـادِ

وَلَنارُ المَرِّيخِ مِنْ حَدَثـانِ الدَّهْـرِ

مُـطْفٍ وَإِنْ عَـلَتْ في اتِّـقـادِ

والثُّـرَيّا رَهينـةٌ بـافْتِـراقِ الشَّمْـلِ

حَـتَّـى تُـعَـدَّ فـي الإِفـرادِ

---

(١) المعاد الثانية يوم القيامة.

(٢) الضمير في «أراد» يرجع إلى الصبا.

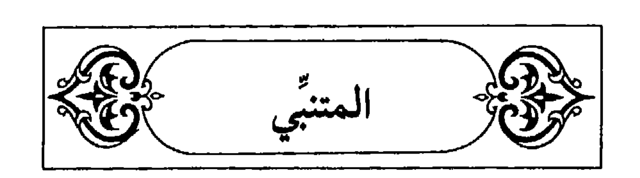
كُلُّ بيتٍ للهدْمِ ما تَبْتَني الوَرْقاءُ[1]
والسَّيِّدُ الرَّفيعُ العمادِ
والفتى ظاعِنٌ ويَكْفيهِ ظِلُّ السِّدْرِ
ضربَ الأطنابِ والأوْتادِ[2]
بانَ أمرُ الإلَهِ واخْتَلَفَ الناسُ
فَداعٍ إلى ضلالٍ وهادِ
والذي حارَتِ البَرِيَّةُ فيهِ
حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جمادِ
واللبيبُ اللبيبُ مَنْ لَيسَ يَغْتَرُّ
بِكَوْنٍ مَصيرُهُ للفَسادِ

* * *

---

(١) الورقاء: الحمامة.

(٢) أي إنَّ الانسان راحل يغنيه ظل السِّدْر (وهو شجر النبق) عن أن يبني المنازل، أي إنه قليل الإقامة في الدنيا فيجب أن لا يهتم بها.



المتنبّي

هو شاعر عصره، بل شاعر العرب جميعاً على مرّ العصور، أحمد بن الحسين بن الحسن (٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م - ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م). قضى حياته متنقّلاً من أمير إلى آخر، يمدح هذا ويهجو ذاك، لكنّ أكثر إقامته كانت في بلاط سيف الدولة الحمدانيّ في حلب. اشتُهر بالشعر الحكميّ، والمدح، والهجاء، والرّثاء.

وفي رثائه يقف المتنبّي من الموت موقف الحكيم، ويقف من المائت موقف التعظيم والتبجيل، ويقف من آل الفقيد موقف المادح، ويقف من نفسه موقف الذكرى والألم النفسيّ، فرثاؤه «ليس رثاء التفجّع والانهيار والضّعف، ولا رثاء من يبكي ويذرف دموعاً، وإنّما هو رثاء التشاؤم، والتألّم، والتأمّل، ورثاؤه لمن يحبّ هو رثاء الثورة النفسية، والانفجار التشاؤميّ، والصرخات المدوّية التي تهزّ الكيان، وتزعزع الإنسان».

رثاء أمّ سيف الدولة

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ والعوالي
وَتَقْتُلُنا المَنُونُ بِلا قِتالِ[1]

(١) المشرفيّة: السيوف. العوالي: الرماح. المنون: الموت.

وَنَـرْتَـبِطُ السَّـوَابِـقَ مُقْـرَبَـاتٍ
وما يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيـالي[1]
وَمَنْ لم يَعْشَقِ الـدُّنيَا قَـدِيمـاً
ولكنْ لا سَبِيـلَ إلى الـوِصَـالِ
نَصِيبُـكَ في حيـاتِـك من حَبِيبٍ
نَصِيبُـكَ في مَنَـامِـكَ مِنْ خَيـالِ
رَمَـانِي الـدَّهـرُ بـالأرْزاءِ حَتَّى
فُـؤادِي في غِـشَـاءٍ من نِـبَـالِ
فَصِـرْتُ إذا أصـابَتْني سِـهَـامٌ
تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ على النِّصالِ[2]
وَهَـانَ، فَمَـا أُبَـالي بـالـرَّزايا
لأنّي مـا آنْتَفَعْـتُ بـأنْ أُبـالي
وهـذا أوَّلُ الـنَّـاعِـيـنَ طُـرًّا
لأَوَّلِ مَـيْتَـةٍ فـي ذا الـجَـلالِ
كـأنَّ المَـوْتَ لَمْ يَفْجَـعْ بِنَفْسٍ
ولـم يَخْـطُرْ لِـمَخْـلُوقٍ بِـبَـالِ
صَـلاَةُ آلـلَّهِ خـالِقِـنَـا حَنُـوطٌ
على الوَجْهِ المكفَّنِ بـالجَمَالِ[3]

---

(١) السّوابق: كرام الخيل. المقربات: المدناة من البيوت، إمّا لفرط الحاجة إليها أو للضنّ بها. الخبب: نوع من العدو. يقول: ونرتبط الخيول الكريمة، ومع ذلك لا تنجينا من سعي اللّيالي.

(٢) النصال: ج نصل، وهي الحديدة التي في رأسها السهم.

(٣) يدعو لها بأن تكون رحمة الله عليها كالحنوط للميت.

على المَدْفُونِ قَبْلَ التُّرْبِ صَـوْناً
وَقَبْلَ اللَّحْدِ في كَرَمِ الخِلالِ[1]

فـإنَّ لـه بِبَـطْنِ الأرْضِ شَخْصـاً
جَـدِيـداً ذِكْـرُنَـاهُ وَهْــوَ بَـالي[2]

ومــا أَحَــدٌ يُخَلَّدُ فـي البَــرَايَــا
بَــلِ الــدُّنْيَــا تَؤُولُ إلـى زوالِ

أطــابَ النَّفْسَ أنَّـكِ مُتِّ مَــوْتـاً
تَـمَنَّـتْـهُ البَــواقـي وَالـخَــوَالِـي

وَزُلْتِ وَلَمْ تَـرَيْ يـومــاً كـريهــاً
تُسَــرُّ الــرُّوحُ فيــه بــالــزَّوَالِ

رِوَاقُ العِــزِّ حَــوْلَــكِ مُسْبَــطِرٌّ
وَمُلْكُ عَليٍّ ابْنِـكِ في كَمَـالِ[3]

سَقَى مَثْـوَاكِ غـادٍ في الغَــوادي
نَـظِيـرُ نَـوَالِ كَفِّـكِ في النَّـوَالِ

أُسَـائِلُ عَنْـكِ بَعْـدَكِ كُـلَّ مَجْـدٍ
وَمَـا عَهْدي بِمَجْـدٍ عَنْـكِ خـالي

يَمُــرُّ بِقَبْــرِكِ العَــافِي فَيَـبْكِي
وَيَشْغُلُهُ البُكَــاءُ عَنِ الـسُّؤَالِ[4]

---

(١) يقول إنّها كانت مدفونة بالصَّون وكَرَم الخلال قبل أن تُدفن في الترب واللحد.

(٢) يقول: إنَّ شخصه وإن كان يبلى في القبر إلّا أنَّ ذكرنا إياه سيبقى أبداً.

(٣) مسبطّر: ممتدّ.

(٤) العافي: طالب المعروف.

ومـا أَهْـدَاكِ لِلْجَـدْوَى عَلَيْـهِ
لَـوَ أَنَّـكِ تَقْـدِرينَ على فَعَـالِ

بِعَيْشِـكِ هَـلْ سَلَوْتِ فـإِنَّ قَلْبِي
وَإِنْ جـانَبْتُ أَرْضَكِ غَيْـرُ سَـالي

نَـزَلْتِ على الكـراهَـةِ في مَكَـانٍ
بَعُـدْتِ عَنِ النُّعَـامَى والشَّمَـالِ

حَصَـانٌ مِثْـلُ مـاءِ المُـزْنِ فيـه
كَتُـومُ السِّـرِّ صـادِقَـةُ المَقَـالِ

وَلَيْسَتْ كـالإِنـاثِ ولا اللَّواتـي
تُعَـدُّ لها القُبُـورُ مِنَ الحِجَـالِ

ولا مَنْ في جَنَـازَتِهـا تِـجَـارٌ
يَكُـونُ وَدَاعُهـا نَفْضَ النِّعـالِ[1]

مَشَى الأُمَـراءُ حَـوْلَيْهـا حُفَـاةً
كـأَنَّ المَـرْوَ مِنْ زِفِّ الـرِّئـالِ[2]

وأَبْـرَزَتِ الـخُـدُورُ مُـخَبَّـآتٍ
يَضَعْنَ النِّقْسَ أمكنـةَ الغـوالي[3]

---

(١) يقول في هذين البيتين: ليست كالنساء التي يُعَدْ لها القبر ستراً، فهي مصونة مستورة ولم تكن من نساء السُّوقة يتبع جنازتها تجّار وباعة ينفضون النعال من التراب إذا انصرفوا عن القبر.

(٢) المرو: حجارة الصوّان: زِفّ: صفار الريش. الرئال: ولد النعام.

(٣) النقس: هنا السواد. الغوالي: ج غالية وهي نوع من الطيب. يقول: خرجَتْ لموتها نساء كُنَّ مُخَبّآت.

وَلَـوْ كَـانَ النِّسَـاءُ كَمَنْ فَقَـدْنَـا
لَفُضِّلَتِ النِّسَـاءُ على الـرِّجَـالِ
وما التأْنِيثُ لِإسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ
ولا التَّـذْكِيـرُ فَـخْـرٌ لِلْهِـلالِ
وَأَفْجَـعُ مَنْ فَقَـدْنَـا مَنْ وَجَـدْنَـا
قُبَيْـلَ الفَقْـدِ مَفْقُـودَ الـمِثَـالِ
يُـدَفِّنُ بَعْضُنـا بَعْضـاً وَتَمْشِـي
أَواخِـرُنـا عـلى هَـامِ الأَوَالِـي
وكَـمْ عَـيْـنٍ مُـقَـبَّـلَةِ الـنَّـواحي
كَحِيـلٍ بـالجنـادِلِ والـرِّمَـالِ[1]
وَمُغْضٍ كـانَ لا يُغْضِي لِخَـطْبٍ
وَبـالٍ كـان يُفَكِّـرُ في الهـزالِ
أَسَيْفَ الـدَّوْلَـةِ اسْتَنْجِـدْ بِصَبْرٍ
وكيف بِمِثْـلِ صَبْـرِكَ للجبـال
فـأَنْتَ تُعَـلِّمُ النَّـاسَ الـتَّعـزِّي
وَخَوْضَ المَوْتِ في الحَرْبِ السِّجالِ
وَحَـالاَتُ الـزَّمَـانِ عَلَيْـكَ شَتَّى
وَحَـالُـكَ واحِـدٌ في كُـلِّ حـالِ
فـلا غِيضَتْ بِحَـارُكَ يـا جمـوماً
على عِلَلِ الغرائِبِ والدِّخـالِ[2]

---

(١) الجنادل: ج جندلة وهي الحجارة. يقول: كم عين كانت عزيزة، فصارت تحت الأرض مكحولة بالرمل والحجارة.

(٢) غيضت: نقضت. الجموم: الكثير. علل: الشرب الثاني أو تباعاً. الغرائب: ج غريبة وهي التي ترد إلى الحوض. الدّخال: أن يدخل بعير قد شرب بين بعيرين لم يشربا. يقول: لا =

رَأَيْتُـكَ في الّـذين أَرَى مُلوكـاً
كـأَنّـكَ مُسْتَقِيمٌ في مُحَـالِ[(١)]
فـإنْ تَـفُقِ الأَنَـامَ وأنْـتَ مِنْـهُمْ
فإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغزالِ[(٢)]

* * *

وقال يرثي أبا شجاع فاتكاً، وقد توفي بمصرَ سنة خمسين وثلاثمائة، وكانت هذه المرثية بعد خروجه من مصر:

الْحُـزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّـلُ يَـرْدَعُ
وَالـدَّمْـعُ بَيْنَهُمَـا عَصِيٌّ طَيِّـعُ[(٣)]
يَتَنَـازَعَـانِ دُمُـوعَ عَيْنِ مُسَهَّـدٍ
هَـذَا يَجِيءُ بِهَا وَهَـذَا يَرْجِـعُ[(٤)]
اَلنَّـوْمُ بَعْـدَ أبي شُجَـاعٍ نـافِـرٌ
وَاللَّيْـلُ مُعْيٍ وَالْكَوَاكِبُ ظُلَّعُ[(٥)]

= نَقَضتُ بحارُك يا بحراً كثير الماء وإن وردت عليه الإبل الغريبة وشربت منه.

(١) يقول: أنت بين الملوك كالمستقيم بين المعوج.

(٢) يقول: إن فضلت الناس وأنت واحد منهم، فلا عجب، إذ قد يفضُل بعضُ الشيءِ جملتَه، كالمِسك، وهو بعض دم الغزال، يفضل الغزال كلّه.

(٣) يقول: الحزن لأجل المصيبة يقلقني، والتجمل ـ تكلف الصبر ـ يمنعني عن التهالك والجزع، والدمع بين الحالين عاص لدى التجمّل فيحتبس مطيعاً للقلق فينسكب وبذاك يعصى صاحبه تارة ويطيعه أخرى.

(٤) عني بالمسهد ـ أي الكثير السهاد، الممنوع عنه النوم ـ نفسه. يقول: الحزن والصبر يتنازعان دموع عيني فالحزن يجيء بها ـ أو يجريها والتجمل يردها.

(٥) يقول: النوم بعد أبي شجاع لا يألف العين: أي لا تنام العيون بعده حزناً عليه، والليل يطول فلا ينقضي، كأنه قد أعيا عن المشي ـ كل من التعب ـ فانقطع، والكواكب ظلع ـ كالعرجى ـ لا تقدر أن تقطع الفلك فتغرب. يريد طول الليل لاستيلاء الحزن عليه والهم

إنِّـي لأَجْبُـنُ مِنْ فِـراقِ أَحِـبَّتِـي
وَتُحِسُّ نَفْسِي بالْحِمامِ فأَشْجُعُ[1]
وَيَـزِيدُني غَضَـبُ الأَعَـادِي قَسْوَةً
وَيُلِمُّ بِي عَتْبُ الصَّدِيقِ فأَجْزَعُ[2]
تَصْفو ٱلْحَيَاةُ لِجَـاهِلٍ أَوْ غَـافِلٍ
عَمَّـا مَضَى فِيهَـا ومـا يُتَـوَقَّـعُ[3]
وَلِمَنْ يُغَـالِطُ في ٱلْحَقَائِقِ نَفْسَـهُ
وَيَسُومُهَا طَلَبَ ٱلْمُحَالِ فَتَطْمَعُ[4]

= على قلبه. وعبارة ابن جني: لو كان الليل والكواكب ممّا يؤثّر فيهما حزن لأثّر فيهما موته. وقال الخطيب: إنّما أراد أنّ الليل طويل لفقده فالليل معي والكواكب ظلع ما تسير. يريد طول الليل للحزن.

(١) الحمام: الموت. يقول: أنا جبان عند فراق الأحبة أخافه خوف الجبناء وأشجع عند الموت في ميدان الوغى فلا أهابه. يعني أن الفراق أعظم خطباً عنده من الموت كما قال أبو تمام:

جـليـد عـلى عـتـب الـخـطوب إذا عـرت
ولـسـتُ عـلى عـتـب الاخـلاء بـالْـجَـلْدِ

(٢) يقول: إنه صعب على أعدائه لا يلين لهم، بل يزداد عليهم قسوة إذا غضبوا، ويجزع عند عتب الصديق فلا يطيق احتماله، كما قال أشجع السلمي:

يُـعـطِي زمـامَ الـطوع إخـوانَـهُ
ويـلـتـوي بـالـمـلكِ الـقـادِرِ

وبعد: فإن المتنبي يريد بهذين البيتين عطفه ورقّة قلبه عند المودّة والملاينة، وشدته عند المباطشة والمقاومة.

(٣) قوله عما مضى: متعلّق بغافل، ويتوقع: ينتظر. يقول: إنما تصفو الحياة لجاهل لا يدرك أحوالها ومصايرها، أو غافل عما مضى فها من العبر وما ينتظر في العواقب من انقضائها أو أحداثها التي لا يطيق لها احتمالاً، أما العاقل الفطن الذي ينظر إلى الدنيا بعين المعرفة ويتأملها تأمل الدراية ويمثل صوارفها وتصاريفها فإنها لا تصفو له.

(٤) يسومها: يكلّفها، ويعني بالحقائق: ما لا شك فيه للعاقل، وهو أنّ الدنيا على الحقيقة دار غرور وأخطار، والإنسان فيها على خطر عظيم، وأنّ الحياة، فانية فمن غالط في هذا نفسه =

أَيْنَ الَّـذِي الهَـرَمَـانِ مِنْ بُنْيَـانِـهِ
مَا قَوْمُـهُ مَا يَـوْمُهُ مَـا المَصْرَعُ(١)

تَتَخَلَّفُ الآثَـارُ عَنْ أَصْحَـابِهَـا
حِينـاً وَيُـدْرِكُهَـا الْفَنَـاءُ فَتَتْبَـعُ(٢)

لَمْ يُرْضِ قَلْبَ أبي شُجَاعٍ مَبْلَغٌ
قَبْلَ المَمَاتِ وَلَمْ يَسَعْهُ مَوْضِعُ(٣)

كُـنَّـا نَـظُنُّ دِيَـارَهُ مَـمْـلُوءَةً
ذَهَبـاً فَمَـاتَ وَكُـلُّ دَارٍ بَلْقَـعُ(٤)

=ومناها السلامة والبقاء صفا له العيش حين ألقى عن نفسه الفكر في العواقب، وسام نفسه طلب المحال من البقاء في السلامة مع نيل المراد، فطمعت في ذلك.

(١) الهرمان: هما الهرم الأكبر الأوسط ـ وهما معروفان. يقول أين من بناهما؟ وأين قومه؟ ومتى كان يوم موته؟ وكيف كان مصرعه؟ يعني أنّهما بقيا بعد من بناهما واندرس ذكره وذكر قومه، فما يعرفون ولا يعرف بأيِّ ميتة هلك، ولا في أيِّ وقت لطول ممرّ الدهر عليه. يريد أنّ الدنيا مفنية لأهلها منكرة على من اغتر بها، وأنّ الفناء حتم في رقاب العباد، وأن الجميع صائرون إلى الفناء. وعبارة العكبريّ: قوله أين الذي الهرمان من بنيانه: استدل ببنائهما على تمكّنه، وأقامهما شاهدين على قوته وقدرته، أي أين هو وقوته؟ وأين قومه وكثرتهم؟ وأين عددهم وعددهم؟ أما عفت الدنيا آثار ملكه وأفنته؟ أما فرقت شمله وشتّته؟ أما في بطن الأرض غيبته؟.

(٢) يقول: إن الآثار تبقى بعد أصحابها حيناً من الدهر تدلّ على تمكنهم وقوّتهم وسطوتهم ثم ينالها ما نالهم من الفناء فتذهب كما ذهب أصحابها، وهذه شنشنة الدنيا مع أهلها، والمعهود من تصاريفها.

(٣) يقول: إنه ـ لبعد مرتقى همّته ـ لم يكن يرضى بمبلغ يبلغه في العلا حتى يطلب ما فوقه، ولم يكن ليسعه موضع من الأرض لأنه لا يشبع طموحه.

(٤) البلقع: الخالي. يقول: كنّا نظنّه صاحب ذخائر من الأموال، فلمّا مات لم يخلف مالاً لأنه كان جواداً معطاء.

وإذا المَكَـارِمُ والصَّـوَارِمُ والْقَنـا
وَبَناتُ أَعْوَجَ كلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ(١)
ٱلْمَجْـدُ أَخْسَرُ والمَكَـارِمُ صَفْقَـةً
مِنْ أَنْ يَعِيشَ لَهَا الْكَرِيمُ الأروعُ(٢)
والنَّـاسُ أَنْزَلُ في زَمَـانِكَ مَنْـزِلاً
مِنْ تُعَـايِشَهُمْ وَقَـدْرُكَ أَرْفَـعُ(٣)
بَـرِّدْ حَشَايَ إِنِ ٱسْتَـطَعْتَ بِلَفْظَةٍ
فَلَقَـدْ تَضُـرُّ إذا تَشَـاءُ وَتَنْفَـعُ(٤)

---

(١) يقول: وإنما كل ما كان يجمعه في حياته المكارم والأسلحة والخيل، أما الذهب فلا، لأنه كان يفرقه بالعطاء، بنات أعوج: يعني الخيل؟ وأعوج: فحل مشهور من خيل العرب، تنسب إليه الخيل الأعوجية، قيل سمي بذلك لأن غارة وقعت على أصحابه ليلاً وكان مهراً، ولضنهم به حملوه في وعاء على الإبل حين هربـوا من الغارة، فـاعوج ظهره وبقي فيه العوج، فلقب بالأعوج.

(٢) الأروع: الذكي الفؤاد. يقول: إن المجد والمكارم أخسر صفقة وأنقص حظاً من أن يعيش لها هذا المرثيّ، يعني أنها شقيت لذهاب من كان يحفظها ويجمع شملها وقال العكبريّ ـ عند إعراب قوله المجد أخسر والمكارم صفقة: إذا جعلت التقدير المجد والمكارم أخسر صفقة اختل، لأنك تفصل بالمكارم بين أخسر وبين صفقة، وهي منصوبة بأخسر ـ التي هي عطف على المجد ـ وهذا غير جائز، لأن صفقة تحل من أخسر محل الصلة من الموصول، ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول زيد أحسن وعمرو وجهاً، ولكن لك أن تصرفه إلى وجه آخر، وهو أن تجعل المكارم عطفاً على الضمير في أخسر؟ فإن عطفته على الضمير الذي فيه لم يكن أجنبياً منه، فلا يعد فصلاً بينه وبين صفقة، فيصير نحو قولك. مررت برجل أكـل وعمرو خبزاً، بعطف عمرو على الضمير في أكل ونصب خبزاً بأكل.

(٣) يقول: إن الناس في زمانك أقلّ قدراً من أن تكون بينهم تخالطهم وتعاشرهم، وقدرك أجلّ من أن تعايش أهل هذا الزمان.

(٤) يقول: كلّمْني كلمة وأسمعني منك لفظة إن قدرت عليها، ليسكن ما في قلبي من لوعة الحزن، فلقد كنت في حياتك تضـر ـ إذا تشاء ـ أعـداءك، وتنفع أوليـاءك، أو فانفعني بكلامك.

مـا كَانَ مِنْـكَ إِلَى خَلِيـلٍ قَبْلَهَـا
مـا يُسْتَرَابُ بِـهِ ولا مَا يُـوجِعُ[1]
ولَـقَــدْ أَرَاكَ ومَــا تُـلِمُّ مُـلِمَّــةٌ
إِلَّا نَفَـاهَا عَنْـكَ قَلْبٌ أَصْمَـعُ[2]
وَيَــدٌ كَــأَنَّ قِتَـالَهَــا ونَــوَالَهَــا
فَـرْضٌ يَحِقُّ عَلَيْكَ وَهُـوَ تَبرعُ[3]
يــا مَنْ يُبَــدِّلُ كُــلَّ يَــوْمٍ حُلَّةً
أَنَّـى رَضِيـتَ بِحُـلَّةٍ لَا تُنْـزَعُ[4]
ما زِلْتَ تَخْلَعُهَا على مَنْ شَـاءَهَا
حَتَّى لَبِسْتَ ٱلْيَــوْمَ مَـا لَا تَخْلَعُ
مَـا زِلْتَ تَدْفَـعُ كُـلَّ أَمْـرٍ فَـادِحٍ
حَتَّى أَتَى ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي لَا يُدْفَعُ[5]

---

(١) يقال استراب به: أي رأى منه ما يريبه؟ أيْ يقلقه. يقول: لم يكن منك إلى أخلائك قبل هذه المرة: أي قبل أن تفجعهم بنفسك: ما يريبهم منك أو يوجعهم، فلما فقدت أوجعت قلوبهم وأبكيت عيونهم.

(٢) الأصمع: الذكي الحاد، وقوله وما تلم: حال. يقول: كنت أراك في حال حياتك وما تنزل بك نازلة من نوازل الدهر إلا دفعها عنك قلب ذكي.

(٣) يقول: ونفاها عنك يد شنشنتها إعطاء الأولياء وقتال الأعداء حتى لكأن النوال والقتال واجبان عليها، وهما تبرع ولا وجوب.

(٤) يريد: يا من كان في حياته يلبس كل يوم لباساً جديداً... إذا يخلع الملبوس على من يقصده ـ كيف ترضى أن تلبس الآن حلة لا تخلع؟ يعني الكفن ـ والحلة: اللبـاس من ثوبين ـ إزار ورداء ـ ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين.

(٥) الفادح: الذي يثقل حمله، وفي هذا المعنى يقول الحماسي:

دَفَـعْـنـا بِـكَ الأَيَّـامَ حَـيْـثُ إذا أَتَـتْ
تُـرِيـدُكَ لَم نَـسْـطِعْ لَـهـا عـنـكَ مَـدْفَـعـا

فَـظَلِلْتَ تَنْظُرُ لاَ رِمَـاحُـكَ شُـرَّعٌ

فِيمَـا عَرَاكَ وَلاَ سُيُـوفُكَ قُـطَّعُ (١)

بِـأَبِي الْـوَحِيـدُ وَجَيْشُـهُ مُتَكَـاثِـرٌ

يَبْكِي وَمِنْ شَرِّ السِّلاَحِ الأَدْمُعُ (٢)

وَإِذَا حَصَلْتَ مِنَ ٱلسِّلاَحِ عَلَى ٱلْبُكَا

فَحَشَاكَ رُعْتَ بِهِ وَخَدَّكَ تَقْرَعُ (٣)

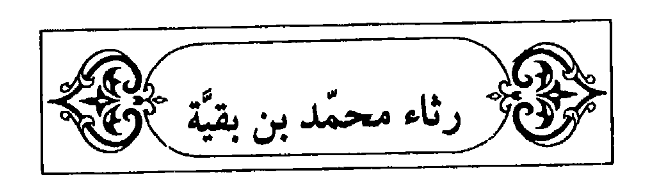
---

(١) عراك: أصابك ونزل بك، وشرع الرمح: بسط اليد به وسدّده. يقول: ظللت - أقمت - تنظر إلى الموت نظر العاجز لم تعمل رماحك ولا سيوفك في دفع ما نزل بك، إذ لا مدفع للموت.

(٢) بأبي: تفدية. وقوله وجيشه متكاثر: حال من ضمير الوحيد، ومتكاثر: خبر أول لجيشه، ويبكي: خبر ثان. يقول: إنه - مع كثرة جيوشه - كان وحيداً مع الأنصار، فلم يكن لجيوشه غناء فيما نزل به غير البكاء، ولا عدّة غير الدموع، مع أن الدموع من شرّ الأسلحة، لأنّها تضرّ صاحبها ولا تغني شيئاً عند المصيبة. وقد فسر هذا في البيت التالي.

(٣) رعت: أفزعت وأخفت، وتقرع: تضرب. يقول: إذا لم يكن لك سلاح غير البكاء فلا غناء في البكاء، إنما تروع به القلب وتقرع به الخد. أي أنه لا يجدي ولا يدفع شيئاً.





عندما انتصر عضد الدولة على ابن عمه عزّ الدولة، قتل محمّد بن بقيَّة وزير عزّ الدولة صَلْباً، فرثاه أبو الحسن الأنباري بهذه القصيدة التي لاقت شهرة واسعة حتّى إن عضد الدولة لما وقف عليها، قال: لقد تمنّيت أن أكون أنا المصلوب، وتكون هذه القصيدة فيّ.

عُلُوٌّ في الحَيَاةِ وفي المَمَاتِ
لَحَقٌّ تِلْكَ إحْدَى المُعْجِزاتِ

كأنَّ الناس حَوْلَكَ حِيْنَ قَامُوا
وُفُودُ نَدَاكَ أيَّامَ الصِّلاتِ

كأنَّكَ قائمٌ فيهِمْ خَطيباً
وَكُلُّهُمُ قِيَامٌ للصَّلاة

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ آحْتِفَاءً
كَمدِّهما إليهم بالهِبَاتِ

ولمّا ضاقَ بَطْنُ الأرْض عَنْ أنْ
يَضُمَّ عُلاكَ مِنْ بَعْدِ الوفاةِ

أصـاروا الـجَـوَّ قَبْـرَكَ واسْتَعـاضُـوا
عَـنِ الأكْـفَـانِ ثَـوبَ الـسَّـافِـيـاتِ

لِعـظْمِـكَ في النُّفـوسِ بَقِيـتَ تَـرْعَى
بِـحُـرَّاسٍ وَحُـفَّـاظٍ ثِـقَـاتِ

وَتُـوقَـدُ حَـوْلَـكَ الـنِّـيـرانُ لَـيْـلاً
كـذَلِـكَ كُـنـتَ أَيَّـامَ الـحَـيَـاةِ

رَكِـبْـتَ مَـطِيَّـةً مِـنْ قَـبْـلُ زَيْـدٌ
عَـلاَهَـا في السِّنِيـن الـمـاضِيـاتِ

وَتِـلْكَ قَـضِـيَّـةٌ فـيـهـا تَـأَسٍّ
تُـبَـاعِـدُ عَنْـكَ تَـعْـيِـيـرَ الـعُـداةِ

وَلَـمْ أَرَ قَـبْـلَ جِـذْعِـكَ قَطُّ جِـذْعـاً
تـمـكَّـنَ مِنْ عِـنَـاقِ الـمَـكْـرُمَـاتِ

أَسَـأْتَ إلى الـنَّـوائِـبِ فَـآسْتَـثَـارَتْ
فـأنْـتَ قـتـيـلُ ثـأرِ الـنَّـائِـبـاتِ

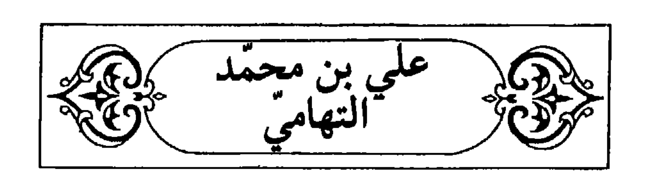
وَكُـنْـتَ لِـمَـعْـشَـرٍ سَـعْـداً فَـلَمَّـا
مَـضَـيْـتَ تَـفَـرَّقُـوا بـالـمُـنْـجَـسَـاتِ

غَـلِيـلٌ بـاطِـنٌ لَـكَ فـي فُـؤادي
يُـخَـفِّـفُ بـالـدُّمُـوعِ الـجـارِيـاتِ

وَلَـوْ أَنِّـي قـدِرْتَ عـلى قِـيـامٍ
بِـفَـرْضِـكَ والـحُـقـوقِ الـواجـبـاتِ

مـلأتُ الأرْضَ مِـنْ نَـظْمِ الـقـوافـي
وَنُـحْـتُ بـهـا خـلافَ الـنَّـائـحـاتِ
ولـكـنِّـي أُصَـبِّـرُ عَـنْـكَ نَـفْـسـي
مـخـافـةَ أنْ أُعَـدَّ مِـنَ الـجُـنَـاةِ
ومـا لَـكَ تـربَـةٌ فـأقـولَ تُـسْـقَـى
لأنَّـكَ نَـصْـبُ هَـطْلِ الـهـاطـلاتِ
عـلـيـكَ تَـحِـيَّـةُ الـرَّحْـمَـن تَـتْـرى
بِـرَحْـمَـاتٍ غـوادٍ رائـحُـاتِ





عليّ بن محمّد التهاميّ

لأبي الحسن علي بن محمد التهامي. وهو شاعر لطيف النظم، تُوفِّي قتلاً في سجن مصر سنة ٤١٦ هـ، وكان قد وصل إليها في مهمّة سياسيّة خفيّة. وهذه المرثاة في ولد له مات صغيراً، وهي مشهورة بحسنها وروعتها، تجمع بين الحزن، والحِكَم، والفخر، وتزيد أبياتها على الثمانين نقتصر منها على هذه النخبة:

حُكْمُ المنيَّةِ في البَرِيَّةِ جارِ
ما هذِهِ الدُّنْيا بِدارِ قرارِ

يا كَوْكَباً ما كانَ أقْصَرَ عُمْرَهُ
وكذاكَ عُمْرُ كواكبِ الأسْحارِ

وَهِلَالَ أيّامٍ مَضَى لم يَسْتَدِرْ
بَدْراً ولم يُمْهَلْ لِوَقْتِ سرار[1]

عَجِلَ الخُسُوفُ عَلَيْهِ قَبْلَ أوانِهِ
فَمَحَاهُ قَبْلَ مَظَنَّةِ الإبْدارِ

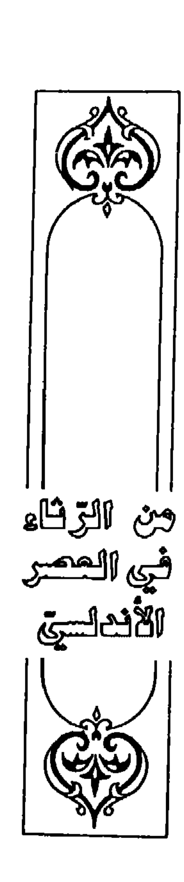
وَٱسْتُلَّ مِنْ أتْرابِهِ وَلِداتِهِ
كالمُقْلَةِ ٱسْتُلَّتْ مِنَ الأشْفارِ

(١) وقت السرار: آخر ليلة في الشهر.

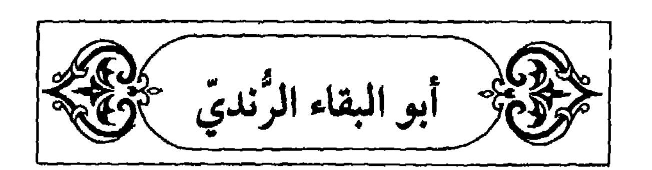
فكأنَّ قلبي قَبْرَهُ وكأنَّهُ
في طيِّهِ سِرٌّ مِنَ الأسْرار
أبْكِيهِ ثمَّ أقُولُ مُعْتذراً لَهُ
وُفِّقْتَ حين تَرَكْتَ ألأمَ دارِ
جاوَرْتُ أعْدائِي وَجَاوَرَ رَبَّهُ
شَتَّانَ بين جِوارِهِ وَجِوارِي
أُخْفِي مِن البُرَحَاءِ ناراً مِثْلَ ما
يُخْفي مِنَ النارِ الزِّنادُ الواري
وأُخَفِّضُ الزَّفَراتِ وهي صواعِدٌ
وأكَفْكِفُ العَبَراتِ وهي جَوارِ
وشِهابُ نارِ الحُزْنِ إنْ طَاوَعْتُهُ
أَوْرَى وإنْ عَاصَيْتُهُ مُتَوارِي
وأكُفُّ نيرانَ الأسَى وَلَرُبَّما
غُلِبَ التَّصَبُّرُ فارْتَمَتْ بَشَرَارِ
ثوبُ الرِّياءِ يَشِفُّ عَمّا تَحْتَهُ
وإذا التَحَفْتَ به فإنَّكَ عارِ
قَصُرَتْ جفوني أم تَباعَدَ بَيْنَهَا
أمْ صُوِّرَتْ عَيْني بلا أشْفارِ
أُحْيِي اللَّيالِي التِّمَّ وهي تُمِيتُني
وَيُمِيتُهُنَّ تَبَلُّجُ الأسْحارِ
وَطَرِي من الدُّنْيَا الشَّبابُ وَرَوقُهُ
فإذا انْقَضَى فَقَدِ انْقَضَتْ أوْطاري

قَـصُــرَتْ مَـسَــافَـتُـهُ ومــا حَـسَــنَــاتُــهُ
عِــنْــدِي وَلاَ آلاؤُهُ بِــقِــصَــارِ
نَــزْدادُ هَــمّــاً كــلَّمــا آزْدَدْنــا غــنــىً
والــفَـقْــرُ كــلُّ الــفَـقْــرِ فــي الإكـثـارِ
مــا زادَ فَــوْقَ الــزادِ خُــلِّفَ ضــائــعــاً
فــي حــادِثٍ أو وارِثٍ أو عــارِ
إنِّــي لأَرْحَــمُ حــاسِــدِيَّ لِــحَــرِّ مــا
ضَــمِــنَــتْ صُــدُورُهُــمْ مِــنَ الأوغــارِ




من الرثاء
في العصر
الأندلسي





هو صالح بن شريف الرّنديّ، نسبةً إلى رُندة في جنـوبي الأندلس. شاعر أندلسيّ متأخّر من أبناء القرن التاسع الهجريّ. اشتهر بقصيدته السائرة في رثاء الأندلس.

رثاء الأندلس

لِكُـلِّ شَيْءٍ إذا مـا تَمَّ نُقْصَـانُ

فـلا يُغَـرَّ بِـطيبِ العَيْشِ إنْسَـانُ

هي الأُمُـورُ كما شـاهدْتُهَـا دُوَلٌ

مَنْ سَـرَّهُ زَمَنٌ سَـاءَتْـهُ أزْمـانُ

وَهَـذِهِ الـدَّارُ لا تُبْقِي على أَحَـدٍ

وَلاَ يَـدُومُ علَى حَـالٍ لَهَـا شَـانُ

أتى على الكُـلِّ أمْرٌ لا مَردَّ لَـهُ

حتَّى قَضوا، فَكَأنَّ القَومَ ما كانُوا

وَصَارَ مَا كَانَ من مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ

كَمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطيفِ وسْنَانُ

فجائعُ الدَّهْرِ أنْواعٌ مُنَوَّعَةٌ
وللزَّمانِ مَسَرَّاتٌ وأحْزَانُ

ولِلْحَوَادِثِ سَلْوَانٌ يُسَهِّلُهَا
وَمَا لِمَا حَلَّ بالإسْلامِ سَلْوَانُ

دهى الجَزِيرَةَ أمْرٌ لا عَزَاءَ لَهُ
هَوَى لَهُ أُحُدٌ وانْهَدَّ ثَهْلانُ(١)

تَبْكِي الحَنِيفَيَّةُ البَيْضَاءُ مِنْ أَسَفٍ
كما بَكَى لِفِرَاقِ الإلْفِ هَيْمانُ

على دِيَارٍ من الإسْلامِ خَالِيَةٍ
قَدْ أقْفَرَتْ ولها بالكُفْرِ عمرانُ

يا غافلاً ولَهُ في الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ
إنْ كُنْتَ في سِنَةٍ فالدَّهْرُ يقظانُ(٢)

تلك المُصِيبَةُ أنْسَتْ ما تَقَدَّمَها
وما لها مِن طِوَالِ الدَّهْرِ نسْيانُ

يا رَاكِبين عِتاقَ الخَيْلِ ضامِرَةً
كَأنّها في مَجَالِ السَّبْقِ عِقْبانُ

وحَامِلِينَ سُيُوفَ الهِنْدِ مُرْهَفَةً
كَأَنَّهَا في ظَلامِ النَّقْعِ نيرانُ

وَرَاتِعِينَ وراءَ البَحْرِ في دِعَةٍ
لَهُمْ بأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وسُلْطَانُ

---

(١) أحد وثهلان : جبلان.

(٢) السِّنة : الغفلة.

أعِنْـدَكُمْ نَبَـأٌ مِنْ أَهْـلِ أنْـدلُسٍ
فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ القَوْمِ رُكْبَـانُ

كم يَسْتَغِيثُ بنا المُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ
قَتْلى وأَسْـرَى فمـا يَهْتَـزُّ إنْسَـانُ

ماذا التَّقَاطُـعُ في الإسْلامِ بَيْنَكُمُ
وأنْـتُمُ يـا عِـبَـادَ آلـلَّهِ إخْـوانُ

ألَا نُفُـوسٌ أبِيَّـاتٌ لـهـا هِمَـمٌ
أمـا على الخيـرِ أنْصَـارٌ وأعْـوانُ

يـا مَنْ لِذلَّـةِ قَـوْمٍ بَعْدَ عِـزِّهِمِ
أحَـالَ حَـالَهُمُ جَـوْرٌ وَطُغْيَـانُ

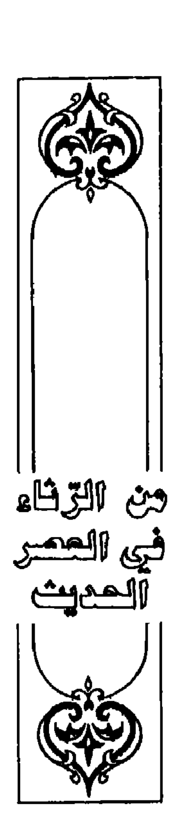
بالأمْسِ كانُوا مُلُوكاً في مَنَازِلِهِمْ
واليَوْمَ هم في بِلادِ الكُفْرِ عُبْدَانُ

وَلَـوْ رَأَيْتَ بُكَـاهُمْ عِنْـدَ بَيْعِهِمُ
لَهَـالَكَ الأمْـرُ واسْتَهْوَتْـكَ أحْزَانُ

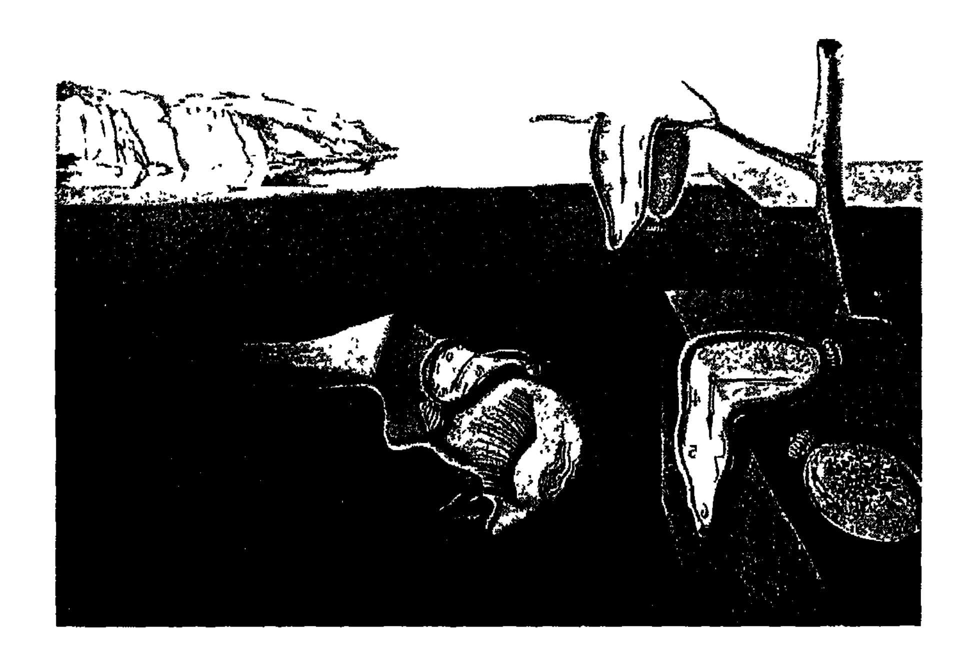
لِمِثْلِ هَذا يَذُوبُ القَلْبُ من كَمَدٍ
إنْ كانَ في القَلْبِ إسلامٌ وإيمانُ







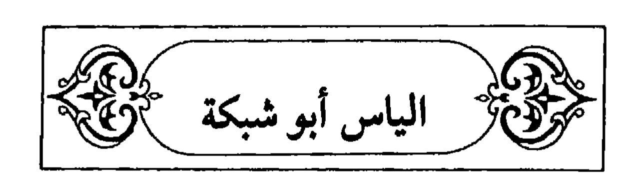
من الرثاء في العصر الحديث



سلفادور دالي
ـ إلتحاح الذاكرة ـ ١٩٣١

هذه اللوحة لسلفادور دالي، وفيها يتثاءب الوقت، وتسيل الساعات وتتمدّد على بقايا شبه إنسانيّة وغصون يابسة مكعّبات: أو يحتاج النمل الأسود الآكل، ساعة مقفلة على الوقت.

بينما يبدو الأفق الشاحب الغرائبيّ، وكأنه عالم آخر أبديّ لا ينتمي إلى الوقت الإنسانيّ، في تناقض مع القلق والسأم والتشويه والهلاك، وكلّها مترافقة مع مرور الوقت في ذاكرة الإنسان الحاجة.



الياس أبو شبكة

أديب لبنانيّ (١٩٠٣ - ١٩٤٧ م) ولد في نيويورك، وعاش في لبنان. عشق الطبيعة، ووقف إلى جانب الإنسان كان من البناة المجدِّدين، وأروع ما عنده المزج البديع بين الإنسان والطبيعة. له آثار شعريّة ونثريّة، منها «أفاعي الفردوس»، و «غلواء»، و «الرسوم».

من أشهر قصائده في الرثاء قصيدته «الحجر الحيّ» تلك التي قالها في فوزي المعلوف الذي توفّي في البرازيل، وأُقيم له تمثال نصفي أُثبت فوق نصب تذكاري في ساحة بلدية زحلة (لبنان) مدينته الأم.

ومن هذه القصيدة:

أَطْبِقْ جنـاحَيْـكَ مَعْقُـوداً لَـكَ الـظَّفَـرُ
فَقَـدْ وَصَلْتَ وشَـوْطُ[1] المجْـدِ مُخْتَصَرُ

مـا ضـرَّ وَكْـرَكَ أن تَـأتيـهِ مُنْـطَفِئـاً
مـا دَامَ قـلبُـكَ في جَـنْبَيْـهِ يَسْـتَعِـرُ[2]

أَتـيتَـهُ فـي الـنُّحـاسِ الـحيِّ طيِّبَـةً
عـليـهِ مِـنْ روحِـكَ الأَعْـرَاقُ والـسُّـرَرُ

(١) الشوط: المرحلة.

(٢) يستعر: يشتعل.

عَينـاكَ في الحَجَرِ المصبـوبِ ساهِـرَةٌ
يَقْـظَانَـةٌ فيهمَـا أَحـلامُـكَ الـغُـرَرُ[1]

* * *

نيـرانُ عَبْقَـرَ في عَيْنَيْـكَ إن مَـرَدَتْ[2]
هُـوجُ الـدُّجَى فَعَلَى عَيْنَيْـكَ تَـنْصَـهِـرُ
مَهْمَـا طَغَى الليـلُ لا تُشْقِيـكَ زَوبَـعَـةٌ
وَلَا تَـجَـهُّـمَ فـي أَجـفـانِـكَ الـحَـوَرُ

* * *

يَقْـظَانُ والنـاسُ عُـمْيٌ فـي مَـرَاقِـدِهِم
سِيّـانَ نامُـوا على ذُلٍّ أم احتُضِـرُوا
عَـارٌ عَـلَيْـنـا نَـنَـامُ الـليـلَ هـانِئَـةٌ
عُـيـونُـنـا وعِـبَـابُ الـلّيـلِ مُـعْـتَـكِـرُ
وتَشْهَـدُ الصُبْحَ عُـرسَ الصُبحِ مُنْعقـداً
عَـلَى جَـبينِـكِ نـورٌ مِـنْـهُ ينـضَـفِـرُ
وَلَائِـمٌ لَـكَ تُـزْجَى مِـنْ مَـوائِـدِهَـا
الـعِـطرُ والـنّـورُ والألـحـانُ والـصُـوَرُ

* * *

تَـشُـدُّ جَـفْـنَـيْـكَ رؤيَـا لا قَـرارَ لَـهـا
كَـأَنَّمَـا الغَيْبُ فـي عَيْـنَيْـكَ مُـنْحَـصِـرُ

---

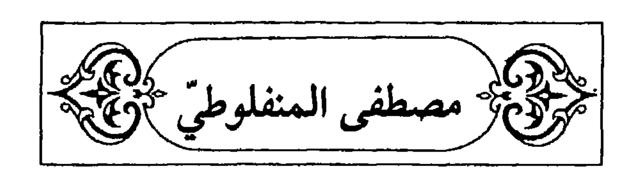
(١) الغرر: البهيّة.
(٢) مردَت: عصَتْ.

عَيْنُ العظيمِ ضِياءُ الأنبياءِ بِها
مَرَّ الجحيمُ ولم يَطرفْ لها بَصَرُ
مُنْذُ ابنِ مريمَ والأكفانُ هاوِيَةٌ
عَنِ النُبوغِ وصَخرُ القَبرِ مُنْحَدِرُ
كم في بِلادِكَ من نَفْسٍ تَوَدُّ على
وقاحِ عورتِها أن تُسدَلَ السُتُرُ

* * *

أبا النُسورِ، سَقَيْتَ الموتَ خَمْرَتَه ,
فَصَلبُكَ المُصْطَفَى لِلْخُلْدِ مُدَّخَرُ
ما ضَرَّ نَسْرَكَ لم يَعْقِبْ وقد نَسَلَتْ
مِنْهُ النُجُومُ، فَفَوْزي وحدَه أسَرُ
ورُبَّ حَيٍّ غَدَا في قومِهِ حَجراً
ورُبَّ مَيْتٍ غَدَا حَيًّا بِهِ الحَجَرُ





مصطفى المنفلوطيّ

أديب مصريّ (١٢٨٩ هـ/ ١٨٧٢ م - ١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٤ م) نابغة في الإنشاء والأدب. انفرد بأسلوب نقيّ في مقالاته وكتبه. وله شعر جيد فيه رقّة وعذوبة. من مؤلّفاته «النظرات»، و«في سبيل التاج»، و«العبرات»، و «مجدولين».

ومن رثائه نثبت قوله في رثائه ابنه.

١ ـ الآنَ نَفَضْتُ يَدَيَّ من تُرابِ قبرِكَ يا بُنيّ، وعُدتُ إلى مَنْزِلي، كما يعودُ القائدُ المُنكَسِرُ من ساحةِ الحربِ، لا أملِكُ إلّا دمعةً، لا أستطيعُ إرسالَها، وزَفرةً لا أستطيعُ تَصعيدَها؛ ذلك لأنّ اللّهَ الذي كَتَبَ لي في لوحِ مَقاديرِه[1] هذا الشّقاءَ في أمْرِكَ، فرَزَقَني بكَ قبلَ أنْ أسألَهُ إيّاك، ثمَّ آخْتَطَفَكَ قبلَ أن آسْتَعْفِيهِ[2] مِنْكَ، قد أرادَ أن يُتمِّمَ قضاءَه فيَّ، وأنْ يُجرعني الكأسَ حتّى ثُمالتِها[3]، فَلَهُ الحَمْدُ راضياً وغاضباً، وله الثّناءُ مُنعِماً وسالِباً، ولَهُ منّي

(١) لوح المقادير: إيمان دينيّ بأنّ الله يضع لكلّ إنسان حين يُولد لوحاً يكتب عليه سيرة حياته الدنيا والمصائب التي تنزل به.
(٢) أستعفيه: أطلب منه العفو عن تكليفه.
(٣) الثمالة: البقية الباقية في الكأس.

ما يَشاءُ منَ الرِّضا بِقضَائِهِ، والصَّبْرِ عَلى بَلائِه.

٢ ـ رأيتُكَ يا بنيَّ في فِراشِكَ عليلاً فَجزعْتُ[1]، ثم خِفْتُ عليكَ الموتَ فَفَزِعْتُ، وكأنّما كان يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ الموتَ والحياةَ شأنٌ من شُؤونِ الناسِ، وعَمَلٌ منَ الأعمالِ التي تَملِكُها أيْدِيهِمْ، وٱسْتَشَرْتُ الطَّبيبَ في أمرِكَ، فكتبَ ليَ الدواءَ، وَوَعَدني بالشِّفاءِ، فجَلَسْتُ بجانِبِكَ أصُبُّ في فمكَ ذلك السائلَ الأصفرَ قَطْرةً قَطْرَةً، والقَدَرُ يَنْتزعُ من جَنْبَيْكَ الحياةَ قِطعَةً قِطعة، حتى نظرتُ، فإذا أنتَ بين يَديَّ جُثَّةٌ باردةٌ لا حَراكَ بها، وإذا قارورةُ الدّواءِ ما تزالُ في يدي فعلِمتُ أني قد ثكِلْتُكَ، وأن الأمرَ أمرُ القضاءِ لا أمرُ الدَّواء! لقد كان خيراً لي ولكَ يا بُنيَّ أن أكِلَ[2] إلى اللّهِ أَمْرَكَ في شِفائِكَ ومَرضِكَ، وحياتِك، ومَوْتِك. . .

٣ ـ ما أسْمَجَ[3] وجهَ الحياةِ مِنْ بَعدِكَ يا بُنيّ! وما أقبحَ صورةَ هذه الكائناتِ في نظري! وما أشَدَّ ظُلمةَ البيتِ الذي أسْكُنُهُ بعد فِراقِكَ إيّاه! فلقد كُنتَ تطلعُ في أرجائِه شَمْساً مُشرقةً تُضيءُ لي كلَّ شيءٍ فيه، أمّا اليومَ فلا ترى عَيْني مِمّا حولي، أكثرَ مما ترى عينُك الآنَ في ظُلُماتِ قبرِك. بكى الباكونَ والباكياتُ عليكَ ما شاءُوا، وتفجَّعُوا، حتى إذا ضَعُفَتْ قِواهُمْ عنِ ٱحتمالِ أكْثَرَ مِمّا ٱحتملوا، لجَأُوا إلى مَضاجِعِهِمْ، فسكنوا إليها، ولم يبقَ ساهراً، في ظُلمةِ هذا الليلِ، وسُكونِه، غيرُ عَيْنَيْن قَريحتين[4]: عينِ أبيك

---

(١) جزعت: خفت.

(٢) أكِل: أسلم إلى الله.

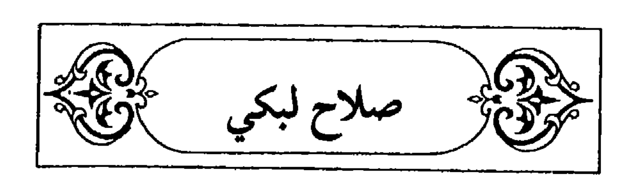
(٣) ما أسمج: ما أقبح.

(٤) قريحتين: جريحتين.

الثاكِل المِسكينِ، وعينٍ أُخرى أنتَ تعلَمُها. . .

٤ ـ دفنتُكَ اليومَ يا بُنيّ، ودَفَنْتُ أخاكَ مِنْ قَبْلِكَ، ودفنتُ من قبلِكُما أُخَوَيْكُما، فيا لِلّهِ لقلبٍ قد لاقى فوقَ ما تُلاقي القلوبُ، وآحتملَ فـوقَ ما تَحتَمِلُ من فوادحِ الخُطوبِ!. لماذا ذهبتمْ يا بنيّ بعدما جِئْتُمْ؟ ولماذ جِئتُمْ إن كُنْتُمْ تَعلمونَ أنّكمْ لا تُقيمون؟. . .





صلاح لبكي

أديب لبناني، كان شاعراً وناثراً ورجل صحافة وبلاغة.

وُلد في البرازيل سنة ١٩٠٦، ثم انتقل، طفلاً، مع أبيه، إلى لبنان، حيث حصَّل قسطاً وافراً من المعارف.

«عاش حياته كلها ـ كاتباً، شاعراً، صحفياً، ومحامياً على الذروة».

هو شاعر مُبدع، أحبّ الجمال، وعبّر عنه في شعر أضفى عليه جماليّة الألفاظ، وجماليّة المعاني، وجماليّة السياق.

هو شاعر إنساني مثاليّ، نبضت العاطفة الإنسانية في كل لفظة من ألفاظه، وفي كل لفتة من لفتاته. توفي سنة ١٩٥٥.

من آثاره: «مواعيد» و«أرجوحة القمر» و«من أعماق الجبل».

مناسبة القصيدة: عندما توفي الشيخ إبراهيم اليازجي رثاه خليل مطران بقصيدة رائعة مطلعها:

ربَّ البيانِ وسيّدَ القلمِ
وفّيْتَ قسطَك للعلى فنمِ

وعندما تُوفِّي شاعر الأقطار العربيَّة خليل مطران رثاه شعراء كثيرون، وحدث أن أقامت الكلّيّة الشرقيَّة بزحلة مهرجاناً لذكرى وفاته، فأنشد الشاعر

الكبير صلاح لبكي القصيدة التالية راثياً ومعارضاً قصيدة للمتنبِّي في رثاء والدة سيف الدولة أمير حلب.

رَمَتْكَ بِما تُعِدُّ لَنا اللَّيالي،
فَهذا الشَّجْوُ[1] مِنْ ذاكَ الْوِصالِ[2]
وَما نَبْكيكَ مَيْتاً، كُلُّ باقٍ
تَمَنَّى أَنْ يَكُونَكَ في المآلِ[3]
وَقَدْ كُنْتَ الضِّياءَ على زَوالٍ،
فَأَمْسَيْتَ الضِّياءَ بِلا زَوالِ
مُعَلِّمَ كُلِّ أُغْنِيَةٍ حَنيناً
وَهَدْيَ الْوِرْدِ في سُبُلِ الْغَوالي[4]
لِمَنْ نُصْغي إذا اشْتَبَهَتْ ظُنُونٌ[5]
وَقَدْ سَكَتَ ابْنُ ناصِيَةِ المقالِ[6]
أَتَيْتَ الشِّعْرَ وَهْوَ على هُزالٍ
بِأَوْطانٍ سَبَقْنَ إلى انْحِلالِ
فَرُحْتَ تَصُوغُ أَشْتاتَ المعاني
ويَعْصِمُكَ الطُّمُوحُ مِنَ الضَّلالِ

(١) الشجو: الهم والحزن.
(٢) الوصال: ضد الهجر.
(٣) المآل: المصير، يقول: كل باق تمنّى أن يكون ميتاً فادياً إيّاك بحياته.
(٤) سبل الغوالي: الطرق التي تؤدي إلى فرائد الأفكار.
(٥) إذا اشتبهت ظنون: أي إذا لم تظهر الحقيقة، ووقعنا في ظنون مختلفة.
(٦) ابن ناصية المقال: أي كما قال خليل مطران «رب البيان وسيد القلم».

وَتَــبْـنــي، فَــالْـقَـصيــدَةُ بَــعْـلَبَــكٌّ،

وكَــانَــتْ قَــبْــلُ أَبْـيَــاتَ ٱلْــجِــبَــالِ

لَــقَــدْ جــاوَزْتَ أَبْـكَــارَ الأُواتــي[1]

عَــلى مَــهَــلٍ، وَإِبْــداعَ الأُوالــي[2]

فَـلَمْ يُـعْـجِــزْكَ صَـعْـبٌ في مــجــالٍ،

وَلا أَغْــواكَ سَــهْــلٌ فــي مَــجَــالِ

كَــأَنَّ ٱلْــحُــسْــنَ أَسْـلَمَ كُــلَّ سِــرٍّ

إِلَــيْــكَ، فَــصِــرْتَ مَــوْضُــوعَ السُّؤالِ

نَــعَــى لُـبْـنَــانُ، يَــوْمَ نُــعيــتَ، عَــقْــلاً

تَــرَسَّــلَ[3] لِــلحقِــيقَــةِ وٱلْــجَــمــالِ

نَــعَــى ٱلْـقَـلْبَ ٱلَّــذِي غَــمَــرَ ٱلْــبَــرايــا

حَــنــانــاً غَــيْــرَ مُــنْــقَــطِعِ الــنَّــوالِ[4]

نعَى ٱلْخُلُقَ ٱلْحَصَانَ[5]، نعَى السجايا

نَعَى ٱلْعَــذْبَ المنــاقِبِ وَٱلْـخِــلالِ[6]

نَــعَــى الأَوْفَــى مَــواثــيــقــاً وَعَــهْــداً،

وَلَــوْ كَــرَّ الــزَّمــانُ بِــغَــيْــرِ حــالِ

---

(١) جاوزت أبكار الأواتي: أي انّك سبقت الآتين بعدك إلى المبتكرات.

(٢) الأوالي: أي الذين سبقوك ولا سيّما الأقدمين منهم.

(٣) ترسّل: أي مال ميلاً شديداً.

(٤) النوال: العطاء.

(٥) الخلق الحصان: أي المصون.

(٦) الخلايا والسجايا والمناقب: الصفات الخلقيّة الكريمة.

نَـعَـى الآدابَ، عِـلْـمـاً وَآحْـتِـشـامـاً،

وَذاكَ الـصَّـوْغُ فـي ذاكَ آلْـجَـلالِ

أخـا آلْـهِـمَـم آلْكِـبـارِ، سَـطَعْتَ فـيـنـا

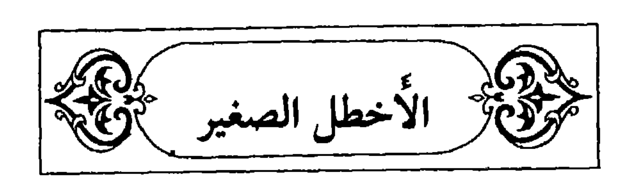
أبـاً لِـلْعَـبْـقَـرِيَّـاتِ الـصِّـقـالِ

لئِـنْ تَـكُـنِ آلْـمَـنِـيَّـةُ جُـلَّ فَـضْـلٍ

فَـقَـدْ وَفَّـيْـتَ قِـسْـطَكَ لِـلْمَـعـالـي

وَحُـقَّ لَـكَ الـرُّقـادُ، وَأنـتَ طِـفـلٌ

تَـخَـطَّى السَّـابِقيـنَ إلى آلْـكَـمـالِ



الأخطل الصغير

هو بشارة بن عبد الله الخوري (١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م - ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م) أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث. مولده ووفاته في بيروت. أنشأ جريدة «البرق»، وعمل في الصحافة طول حياته. له ديوانان شعريّان، هما الهوى والشباب»، و«شعر الأخطل الصغير». من أهم قصائده في الرّثاء تلك التي قالها في رثاء سعد زغلول التالية، وسنثبت بعدها القصيدة الشهيرة التي قالها في الاحتفال الذي أقيم في حلب تكريماً لشاعرها الخالد أبي الطّيب المتنبِّي بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته.

قالوا: دَهَتْ مِصْرَ دَهْيَاءُ. فَقُلْتُ لَهُمْ:
هَلْ غُيِّضَ النِّيلُ أَمْ هَلْ زُلْزِلَ الهَرَمُ؟
قالوا: أَشَدُّ وَأَدْهى. قُلْتُ: وَيْحَكُمُ
إِذاً، لَقَدْ ماتَ سَعْدُ، وَانْطَوى العَلَمُ!

* * *

لِمْ لا تقولون: إنَّ العُرْبَ قاطِبَةً
تَيَتَّموا، كانَ زُغْلولٌ أَباً لَهُمُ؟
لِمْ لا تَقولونَ: إِنَّ الغَرْبَ مُضْطَرِبٌ
لِمْ لَا تَقولونَ: إِنَّ الشَّرقَ مُضْطَرِمُ؟

عَذَرْتُكُمْ، كانَ مِلْءَ الكَوْنِ صاحِبُكُمْ
فَكَيْفَ تَمْلأُ أُذْنَ السّامِعِ الكَلِمُ؟
لَلصَّمْتُ أَبْلَغُ مِنْهَا، وَهُوَ مُنْسَحِقٌ
والدَّمْعُ أَفْعَلُ مِنْهَا، وَهْوَ مُنْسَجِمُ

* * *

جاءَ النَّبِيُّون مِنْ قَبْلٍ، فَما لأَمُوا
وَجَاءَ سَعْدٌ، فشَمْلُ الشَّرقِ مُلْتَئِمُ
القائِلُ الحقَّ لا تُثْنَى أَعِنَّتُهُ
والواحِدُ الفَرْدُ في أثوابِهِ أُمَمُ
لُطْفُ المسيحِ مُذابٌ في مَحاجِرِهِ
وَعَزْمُ أَحْمَدَ في جَنْبَيْهِ يَحْتَدِمُ
صَلَّى عَلَيْهِ النَّصارى في كَنائِسِهِمْ
والمسْلِمونَ سَعَوا لِلْقَبْرِ، وَآسْتَلَمُوا

* * *

المُؤمنونَ بِسَعْدٍ، أَينَ أُبصِرُهُمْ
والمُعْجَبونَ بِسَعْدٍ، أَينَ أَينَ هُمُ؟
أَفْرِي الطَّيالِس عَنْهُمْ لا أُشاهِدُهُمْ
أَبْري القَلانِس عَنْهُمْ لا أُحِسُّهُمُ
وَأَسْأَلُ الحَفْلَ عَنْهُمْ لا يُجاوِبني
كَأَنَّمَا الحَفْلُ في آذانِهِ صَمَمُ

* * *

بَلَى شَهِدْتُهُمُ والنَّقْعُ مُعْتَكِرٌ
والحَقُّ مُطَّلَبٌ والثَّغْرُ مُبْتَسِمُ
وَرايةُ الوطنِ الغالي تُظِلُّهُمُ
كَأَنَّهَا حَضَنَتْ أَفراخَها الرَّخَمُ(1)
رُوحٌ تَسيلُ على القِرْطَاسِ إنْ خطبوا
وقَدْ تَسيلُ على القِرْضابِ إنْ قحموا(2)
مِصْرُ وَلَيْسَ سِوَى مِصْرٍ لَهُمْ أَرَبٌ
إنْ تَشْقَ يَشْقَوا وإنْ تَنْعَمْ فَقَدْ نَعِموا

* * *

رجالَ مِصْرٍ شفيعي إنْ عَتَبْتُكُمُ
أَنَّ المُحِبَّ لَدَيْكُمْ ليسَ يُتَّهَمُ
إنِّي أخافُ عليكُمْ في تَحَزُّبِكُمْ
أَنْ تَنْصُروا الخَصْمَ وَهْوَ الخَصْمُ والحَكَمُ
تَخاصمونَ على ضَعْفٍ، وَخَصْمُكُمُ
وَهْوَ القَوِيُّ، عَلَيْكُمْ لَيسَ يَخْتَصِمُ
تَوَحَّدوا باسْمِ مِصْرٍ في تجهّمها
وطالعوا ثَغْرَ مِصْرٍ كيفَ يبتَسِمُ
سَعْدٌ أَرادَكُمُ حِلْفاً ـ فلا قُسِمَتْ
أَجْزاؤُكُمْ ـ حُبُّ مِصْرٍ لَيسَ يَنْقَسِمُ

---

(1) الرَّخم: طائر من الجوارح يشبه النسر.
(2) القِرْضاب: السَّيف الباتر. قحموا: قطعوا.

سِيروا - لِكُلِّ أخي دُنيا لُبانَتُهُ (1)
حَتّى أذا ما رَبِحْتُمْ مِصْرَ، فَاقْتَسِموا
تاريخُ مِصْرٍ وَلودٌ، ما انْتَمى شَمَمٌ
إلّا إليه، وحابى نَفْسَهُ الشَّمَمُ
أُمُّ الحضارَةِ، بَلْ مَجْلَى أشِعَّتِها
يَومَ الحضارَةِ لَمْ تَعْلَقْ بِها رَحِمُ
تَقَهْقَرَتْ دُونَها الأيّامُ واجفَةً
فَهْيَ الشَّبابُ، وَتِلْكَ الشَّيبُ والهَرَمُ

* * *

مَنْ مُبْلِغٌ مِصْرَ عَنّا ما نُكابِدُهُ
إنَّ العُروبَةَ فيما بينَنا ذِمَمُ
رُكْنانِ للضّادِ، لمْ تُقْطَمْ عُرًى لَهُما
هُمْ نَحْنُ إنْ رُزِئْتَ يَوْماً وَنَحْنُ هُمُ

* * *

وقال بمناسبة الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبّي :

نَفَيْتَ عَنْكَ العُلى وَالظَّرْفَ وَالأَدَبا
وَإنْ خُلِقْتَ لَها - إنْ لَم تَزُرْ حَلَبا
شَهْباءُ لَوْ كانَتِ الأَحْلامُ كَأْسَ طِلًى
في راحَةِ الفَجْرِ كُنْتِ الزَّهْرَ والحَبَبا
أوْ كانَ لِلَّيْلِ أنْ يَخْتارَ حِلْيَتَهُ
وَقَدْ طَلَعْتَ عَلَيْهِ، لا الشُّهُبا

---

(1) اللبانة: الحاجة.

لَوْ أَنْصَفَ العَرَبُ الأَحْرارُ نَهْضَتَهُمْ
لَشَيَّدوا لَكَ في ساحاتِها النُّصُبا
لَكِنْ خُلِقْتَ لأَمْرٍ لَيْسَ يُدْرِكُهُ
مَنْ يَعْشَقُ الذُلَّ أَوْ مَنْ يَعْبُدُ الرُّتَبا

* * *

مَلاعِبَ الصِّيْدِ مِنْ حَمْدانَ، ما نَسَلوا
إلّا الأَهِلَّةَ وَالأَشْبالَ وَالقُضُبا
الخالِعينَ عَلى الأَوْطانِ بَهْجَتَها
وَالرّافِعينَ عَلى أَرْماحِها القَصَبا
حُسامُهُمْ ما نَبا في وَجْهِ مَنْ ضَرَبوا
وَمُهْرُهُمْ ما كَبا في إِثْرِ مَنْ هَرَبا
ما جَرَّدَ الدَّهْرُ سَيْفاً مِثْلَ «سَيْفِهِمِ»
يُجْري بِهِ الدَّمَ أَوْ يُجْري بِهِ الذَّهَبا
رَبُّ القَوافي عَلى الإِطْلاقِ شاعِرُهُمْ
الخُلْدُ والمَجْدُ في آفاقِهِ اصْطَحَبا
سَيْفانِ في قَبْضَةِ الشَّهْباءِ لا ثُلِما
قَدْ شَرَّفا العُرْبَ بَلْ قَدْ شَرَّفا الأَدَبا

* * *

عُرْسٌ مِنَ الجِنِّ في الصَّحْراءِ قَدْ نَصَبوا
لَهُ السُّرادِقَ تَحْتَ اللَّيْلِ وَالقُبَبا
كَأَنَّهُ تَدْمُرُ الزَّهْراءُ مارِجَةً
بِمِثْلِ لُسْنِ الأَفاعي تَقْذِفُ اللَّهَبا

أَوْ هَضْبَةٌ مِنْ خُرافاتٍ مُرَقَّعَةٌ
بِأَعْيُنٍ مِنْ لَظَىً أَوْ مِنْ رُؤُوسِ ظُبى
تَخاصَرَ الجِنُّ فِيهَا بَعْدَ ما سَكِروا
وَبَعْدَ ما احْتَدَمَتْ أَوْتارُهُمْ صَخَبا
فَأَفْزَعَ الرَّمْلَ ما زَفُّوا وَما عَزَفوا
فَطار يَسْتَنْجِدُ القِيعانَ وَالكُثُبا
تَكَشَّفَ الصُّبْحُ عَنْ طِفْلٍ وَمارِدَةٍ
لَهُ عَلى صَدْرِها زَأْرٌ إِذا غَضِبا
كَأَنَّهُ الزِّئْبَقُ الرَّجْراجُ في يَدِها
أَوْ خَفْقَةُ البَرْقِ إِمَّا اهْتَزَّ وَاضْطَرَبا
نادَى أَبوهُ - عَظيمُ الجِنِّ - عِتْرَتَهُ،
فَأَقْبَلوا يَنْظُرونَ البِدْعَةَ العَجَبا
ماذا نُسَمِّيهِ؟... قالَ البَعْضُ: صاعِقَةً
فَقالَ: كَلَّا... فَقالوا: عَاصِفاً - فَأَبى
فَقامَ كَالطَّوْدِ مِنْهُمْ مارِدٌ لَسِنٌ
وَقالَ: لَمْ تُنْصِفُوهُ اسْماً وَلا لَقَبا
سَنَبْعَثُ الفِتْنَةَ الكُبْرى عَلَى يَدِهِ
فَنَشْغَلُ النَّاسَ وَالأَقْلامَ وَالكُتُبا
وَنَجْعَلُ الشِّعْرَ رَبّاً يَسْجُدونَ لَهُ
فَإِنْ غَوَوا فَلَقَدْ نِلْنا بِهِ الأَرَبا

* * *

وَاخْتالَ غَيْرَ قَليلٍ، ثُمَّ قالَ لَهُمْ:
سَمَّيْتُهُ المُتَنَبِّي.... فَانْتَشَوْا طَرَبا
وَزَلْزَلُوا البِيدَ حَتَّى كادَ سالِكُها
يَهْوِي بِهِ الرَّحْلُ لا يَدْرِي لَهُ سَبَبا
يَرى السَّرابَ عُباباً هاجَ زاخِرُهُ
وَالرَّمْلَ يَلْتَحِفُ الأَزْهارَ وَالعُشُبا

* * *

إِيهٍ أَخا الوَفْرَةِ السَّوْداءِ كَمْ مَلِكٍ
أَعاضَكَ التَّاجَ مِنْها، لَوْ بِها اغْتَصَبا
طَلَبْتَ بِالشِّعْرِ دونَ الشِّعْرِ مَرْتَبَةً
فَشاءَ رَبُّكَ أَنْ لا تُدْرِكَ الطَّلَبا
إِذَنْ لأَثْكَلْتَ أُمَّ الشِّعْرِ واجِدَها
وَعُطِّلَ الوَكْرُ لا شَدْواً وَلا زَغَبا
لَوْلا طِماحُكَ ما غَنَّيْتَ قافِيَةً
بَوَّأْتَها الشَّمْسَ، أَوْ قَلَّدْتَها الحِقَبا
«خُذْ ما تَراهُ وَدَعْ شَيْئاً حَلِمْتَ بِهِ»
فَرُبَّ حِلْمٍ جَميلٍ أَوْرَثَ العَطَبا

* * *

أَبا الفُتوحاتِ لَمْ تُزْجِ الخَميسَ لَها
وَلا لَبِسْتَ إِلَيْها البِيضَ وَاليَلَبا
تَأْتِي التُّخُومَ فَتَلْقاها مُهَلِّلَةً
مِثْلَ المَريضِ أَتاهُ بِالشِّفاءِ نَبا

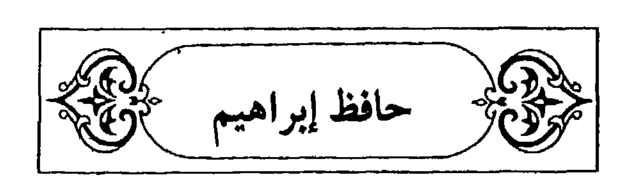
مـا الفَتْحُ أَهْـدَى إِلَيْكَ الـرَّوْضَ وَالسحُبـا
كـالفَتْحِ جَـرَّ عَلَيْـكَ الـوَيْـلَ وَالحَـرَبـا
وَلَـوْ فَتَحْتَ بِحَـدِّ السَّيْـفِ لانْحَـطَمَتْ
تِيجـانُ قَـوْمٍ، حَشَـوْهـا الـظُّلْمَ وَالـرَّهَبـا
«مـا كُـلُّ مـا يَتَمَنَّى الـمَـرْءُ يُـدْرِكُـهُ»
وَيُـدْرِكُ الغـايَـةَ القُصْـوَى وَمـا طَلَبـا
قَـدْ يُؤْثِـرُ الـدَّهْـرُ إِنْسـانـاً فَيَحْـرِمُـهُ
مَنْ يَمْنَـعِ الشَّيْءَ أَحْيـانـاً فَقَـدْ وَهَبـا
يَـا مُـلْبِسَ الحِـكْمَـةِ الـغَـرَّاءِ رَوْعَتَـهَـا
حَتَّى هَـتَـفْـنَـا: أَوَحْـيـاً قُلْتَ أَمْ أَدَبـا
كـأَنَّـمـا هِـيَ أَصْـداءٌ يُـرَدِّدُهـا
هـذا إذا بَـثَّ، أَوْ هـذا إذا عَـتَـبَـا
قـالـوا اسْتَبَاحَ أَرِسْطو، حينَ أَعْجَـزَهُمْ،
وَإِنَّـهُ اسْـتَـلَّ مِـنْ آيَـاتِـهِ الـنُّـخَـبـا
مهْـلاً، فَمـا الـدَّهْـرُ إلاَّ فَيْضُ فَلْسَفَـةٍ
يَـعـودُ بِـالـدُّرِّ مِنْـهُ كُـلُّ مَـنْ دَأَبـا
مَـنْ عَلَّمَ ابْـنَ أَبي سُـلْمَى «حَـكيـمـتَـهُ»
وَقُسَّ سـاعِـدَةَ الأَمْـثـالَ وَالـخُـطَبـا؟
قـالـوا الجَـديـدُ، فَقُلْنـا: أَنْتَ حُجَّتُـهُ
يَـا وَاهِبـاً كُـلَّ عَصْـرٍ كُـلَّ مـا خَلَبـا
أَفِـكْـرَةٌ لَـمْ تَـكُـنْ فَـتَّـقْـتَ بُـرْعُـمَـهـا
وَجِـدَّةٌ لَـمْ تَـكُـنْ أُمّـاً لَـهـا وَأَبـاً

بَعْضُ الجَـديـدِ الَّـذي يـدْعـونَـهُ أَدَبـاً
يَـمـوتُ في يَـومِـهِ، هَـذا إذا وُهِـبـا
إنْ لَمْ يَكُنْ لَـكَ حُسْنُ الـوَجْـهِ تَعْـرِضُـهُ
فَـقَـدْ ظَلَمْتَ بِـهِ أَثْـوابَـكَ الـقُشُـبـا
عَـفْـواً نَـبـيَّ الـقَـوافـي، أَيُّ نـابِـغَـةٍ
لَمْ يَـزْرَعـوا حَـوْلَـهُ البُهْتَـانَ وَالكَـذِبَـا
مَنَعْتَ عَنْهُمْ ضِيـاءَ الشَّمْسِ فَـانْحَجَبـوا
فَـهَـلْ تَلومُـهُـمُ إنْ مَـزَّقـوا الحُـجُـبـا
أَضْـرَمْتَ ثَـوْرَتَـكَ الهَـوْجَـاءَ فَـالتَهَمَتْ
مِنَ القَـريضِ الهَشيمَ الـغَثَّ والـخَشَبـا
وَغـالَ شِعْـرُكَ شِعْـرَ الكـائِـدينَ لَـهُ،
لِنَفْسِهِمْ حَفَـرَتْ أَيْـديـهِـمِ الـتُّـرَبـا
حَـتَّـى رَجَـعْـتَ وَلِـلأَقْـلامِ هَـلْـهَـلَةٌ
في كَفِّ أَبْلَغِ مَنْ غَنَّى وَمَنْ طَـرِبـا...

* * *

يـا خـالِقـاً جيلَهُ، لَـوْلاكَ مـا عَـرَفَتْ
لَـهُ الأَواخِـرُ لا رَأْسـاً ولا ذَنَـبـا
غَضِبْتَ لِلْعَـقْـلِ أَنْ يَشْقى فَثُـرْتَ لَـهُ
بِمِثْـلِ ما انْدَفَـعَ البُـرْكـانُ وَاصْـطَخَبا
هَـلِ الـنُّـبـوَّةُ إلَّا ثَـوْرَةٌ عَـصَـفَـتْ
عَلى التَّقـاليـدِ حَتَّى تَسْتَحيـلَ هَـبـا
مـا ضَـرَّ مُـوقِـدَهَـا، وَالخُلْدُ مَنْـزِلُـهُ،
إذَا رَمى نَفْسَـهُ في نـارِهـا حَـطَبـا...





هـو محمـد حـافظ إبـراهيم (١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م - ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م) شاعر مصر القوميّ، ومدوّن أحداثها نيّفاً وربع قرن. لُقِّب بشاعر النيل، وطار صيته، واشتهر شعره ونثره. كان قويّ الحافظة، راوية، مرحاً، حاضر النكتة، بديع الإلقاء، كريم اليد في حالي بؤسه وشقائه. لـه دِيوان شعريّ، وبعض المؤلّفات النثريّة.

من أهم قصائده في الهجاء قصيدتان، قال الأولى منهما في رثاء الشيخ محمد عبده، وقال الثانية في رثاء مصطفى كمال باشا، وفيما يلي نصّهما:

رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

سَـلامٌ عـلى الإسْـلامِ بَعْـدَ مُـحَمَّـدٍ
سَـلَامٌ عـلى أيّـامِـه الـنَّـضـراتِ[1]

على الـدِّينِ والدُّنْيَا، على العِلْمِ والحِجا
على البِـرِّ والتَّقْـوَى، عـلى الحسَنَـات

لقـد كنتُ أَخْشَى عـادِيَ المَـوْتِ قَبْلَه
فـأَصْبَحْـتُ أَخْشَى أَنْ تَـطُولَ حيـاتي

(١) النضرات: ذوات الحسن والرونق.

فوا لهَفِي - والقَبْرُ بَيْنِي وبَيْنَه -
على نَظْرَةٍ مِنْ تِلْكُمُ النَّظَرات[1]
وَقَفْتُ عليه حاسِرَ الرَّأسِ خاشِعاً
كأنِّي حِيالَ القَبْرِ في عَرَفات[2]
لقد جَهِلُوا قَدْرَ الإمامِ فأَوْدَعُوا
تَجالِيدَهُ في مُوحِشٍ بِفَلاة[3]
ولو ضَرَحُوا بالمَسْجِدَيْنِ لأَنْزَلُوا
بِخَيْرِ بِقاعِ الأرض خَيْرَ رُفات[4]
تَبارَكْتَ هٰذا الدِّينُ دِينُ مُحَمَّدٍ
أَيُتْرَكُ في الدُّنْيا بغَيْرِ حُماة؟
تَبارَكْتَ! هٰذا عالِمُ الشَّرقِ قد قَضَى
ولانَتْ قَناةُ الدِّينِ للغَمَزات[5]
زَرَعْتَ لنا زَرْعاً فأَخْرَجَ شَطْأَهُ
وبِنْتَ ولَمَّا نَجْتَنِ الثَّمَراتِ[6]

---

(١) وا لهفي: كلمة يتحسَّر بها على ما فات.

(٢) حاسر الرأس: عاريه. وحيال القبر: تلقاءه وأمامه.

(٣) تجاليد الإنسان: جسمه وبدنه. والفلاة: الصحراء الواسعة.

(٤) ضرح للميت: حفر له ضريحاً. ويريد «بالمسجدين»: المسجد الحرام بمكّة، وبيت المقدس. ورفات الميت: ما بلي وتكسَّر من عظامه. يقول: لو أنَّهم حفروا بأحد المسجدين ضريحاً لهذا الجسم لكان حريّاً بذلك، لأنّه خير جسم يدفن في خير بقعة من الأرض.

(٥) قضى: مات. والقناة: الرمح. ولين القناة: كناية عن الضعف والوهن. ويريد «بالغمزات»: المطاعن الموجَّهة إلى الإسلام من أعدائه.

(٦) شطء الزرع: فراخه أو سنبله. وكنّى بالزرع: عمّا قام به الفقيد من ضروب الإصلاح، وبنت: بعدت.

فـواهـاً لـه ألاّ يُـصِـيـبَ مُـوَفَّـقـاً
يُـشَـارِفُـه والأرضُ غـيـرُ مَـوات[1]
مَـدَدْنـا إلى الأَعْـلام بَعْـدَكَ راحَـنـا
فـرُدَّتْ إلـى أَعْـطافِـنـا صَـفِـراتِ[2]
وجـالَـت بنـا تَبْغي سِـواكَ عُيُـونُـنـا
فَـعُـدْنَ وآثَـرْنَ الـعَـمَـى شَـرِقـاتِ[3]
وآذَوْكَ فـي ذَات الإلـه وَأَنْـكَـروا
مَكَـانَـكَ حتّى سَـوَّدُوا الصَّـفَحـاتِ[4]
رأيْـتَ الأَذَى فـي جـانِـبِ الله لَـذّةً
ورُحْـتَ ولَـمْ تَـهْـمُـمْ لـه بِـشَـكـاةِ
لقـد كنتَ فِيـهِمْ كَـوكبـاً في غَـيـاهبٍ
وَمَـعْـرِفَـةً فـي أَنْـفُسٍ نَـكِـراتِ[5]
أَبَنْتَ لنـا التَّـنْـزِيـلَ حُكْـمـاً وحِكْـمَـةً
وفَـرَّقْـتَ بيـن الـنُّـورِ والـظُّلُـمَـاتِ[6]

---

(١) الضمير في «له» يرجع إلى الزرع. ويشارفه: يشرف عليه. والأرض الموات: الجدبة التي لا تنبت. يخشى ألّا يجد الزرع من يتعهّده بعد الفقيد مع خصوبة الأرض وقبولها لما يغرس فيها.

(٢) يريد «بالأعلام»: المشهورين من العلماء. والراح: جمع راحة، وهي الكفّ. والأعطاف: الخواصر. وصفرات، أي خاليات.

(٣) شرقات: أي محمرّات من البكاء.

(٤) يشير بهذا البيت وما بعده إلى المطاعن التي كان يوجّهها أعداء الفقيد إليه، وينشرونها في بعض الصحف تشهيراً به، وتحقيراً من شأنه.

(٥) الغياهت: الظلمات.

(٦) يشير بهذا البيت إلى الدروس التي كان يلقيها الأستاذ الإمام في تفسير القرآن.

وَوَفَّقْتَ بين الدِّينِ والعِلْمِ والحِجا
فأَطْلَعْتَ نُوراً مِن ثَلاثِ جِهاتِ

وَقَفْتَ (لِهانُوتُو) و (رِينانَ) وَقْفَةً
أَمَدَّكَ فِيها الرُّوحُ بالنَّفَحاتِ[1]

وخِفْتَ مَقامَ اللهِ في كلِّ مَوْقِفٍ
فخافَكَ أَهْلُ الشَّكِّ والنَّزَعاتِ[2]

وكَمْ لكَ في إِغْفاءَةِ الفَجْرِ يَقْظَةٍ
نَفَضْتَ عليها لَذَّةَ الهَجَعاتِ[3]

وَوَلَّيْتَ شَطْرَ البَيْتِ وَجْهَكَ خالِياً
تُناجِي إلهَ البَيْتِ في الْخَلَواتِ[4]

وكم لَيْلَةٍ عانَدْتَ في جَوْفِها الكَرَى
ونَبَّهْتَ فيها صادِقَ العَزَماتِ[5]

وَأَرْصَدْتَ للباغِي على دِينِ أَحْمَدٍ
شَباةَ يَراعٍ ساحِرِ النَّفَثاتِ[6]

---

(١) هانوتو: جبرائيل هانوتو السياسي المؤرِّخ الفرنسيّ. ولد في ١٩ نوڤمبر سنة ١٨٥٣ م، وقد كتب مقالات في الطعن على الإسلام. ورينان: هو أرنست رينان الفرنسي، ولد في ١٧ فبراير سنة ١٨٢٣ م، وقد كان قسّاً كاثوليكياً، وهو مشهور بمطاعنه في الدِّين الإسلاميّ كصاحبه السابق، وقد ردّ الفقيد على مطاعنهما. وتوفّي رينان في سنة ١٨٩٢م. والروح: جبريل.

(٢) النزعات: الوساوس.

(٣) الإغفاءة: النومة. «ونفضت عليها» الخ، أي أنه خلع على اليقظة لذّة الهجعة فصار يتلذّذ من اليقظة تلذّذ الناس بالهجعة، أي النوم.

(٤) البيت: الكعبة.

(٥) الكرى: النوم. وصادق العزمات: من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي العزمة الصادقة.

(٦) أرصدت: أعددت وهيّأت. واليراع: القلم. وشباته: سنه. ونفثات القلم: ما يفيض به من كلمات تشبيهاً لها بما ينفثه الساحر في العقد.

إذا مَسَّ خَدَّ الطِّرْس فاضَ جَبِينُه
بأَسْطارِ نُورٍ باهِرِ اللَّمعَاتِ[1]
كأنَّ قَرارَ الكَهْرَباءِ بِشِقِّه
يُريع سَناهُ أيْسَرُ اللَّمسَاتِ[2]
فيا سَنَةً مَرَّتْ بأَعْوادِ نَعشِه
لأنْتِ علينا أشْأَمُ السَّنَواتِ
حَطَمْتِ لنا سَيْفاً، وَعَطَّلْتِ مِنْبَراً
وأذْوَيْتِ رَوْضاً ناضِرَ الزَّهراتِ[3]
وأطْفَأْتِ نِبْراساً وأشْعَلْتِ أنْفُساً
على جَمَراتِ الحُزْنِ مُنْطَوِياتِ[4]
رأى في لَيالِيكِ المُنَجِّمُ ما رأى
فأنْذَرَنا بالوَيْلِ والعَثَراتِ[5]
وَنَبَّأَهُ عِلْمُ النُّجُومِ بِحادِثٍ
تَبِيتُ له الأبْراجُ مُضْطَرِباتِ
رَمَى السَّرَطانُ اللَّيْثَ، واللَّيثُ خادِرٌ
ورُبَّ ضَعيفٍ نافِذِ الرَّمَياتِ[6]

---

(١) الطرس (بالكسر): الصحيفة التي يكتب فيها.

(٢) سناه: ضوءه ونوره: يقول: كأنّ الكهرباء مستقرّة في شقّ هذا القلم، فمجّرد اللمس يظهر نوره.

(٣) حطمت: كسرت. وأوذيت: أذبلت.

(٤) النبراس: المصباح.

(٥) يريد «بالمنجّم»: أحد المنجّمين، وكان قد تنبّأ بوفاة الأستاذ الإمام في السنة التي توفّي فيها، وكتب ذلك في تقويمه السنويّ.

(٦) رمى السرطان... الخ، إشارة إلى أن المرحوم الإمام مات بالسرطان، وهو هذا الداء=

فـأوْدَى بـه خَتْـلاً فمـالَ إلى الثـرى
ومـالَتْ لـه الأجْـرَامُ مُنْـحَـرِفَـاتِ[1]
وشـاعَتْ تَعـازي الشُّهْبِ باللَّمْحِ بَيْنَهـا
عـن النَّـيِّـرِ الـهـاوِي إلـى الـفَـلَواتِ
مَـشَى نَـعْشُـه يَـخْتَـالُ عُـجْبـاً بـرَبِّـهِ
وَيَـخْـطِرُ بيـن اللَّمْس والـقُـبُـلاتِ[2]
تَـكَـادُ الـدُّمـوعُ الجـارِيـاتُ تُـقِلُّه
وَتَـدْفَـعُـه الأنْـفَـاسُ مُـسْتَـعِـراتِ[3]
بَكى الشَّـرْقُ فـارتَجَّتْ لـه الأرْضُ رَجَّـةً
وضـاقَتْ عُيـونُ الـكَـوْنِ بـالعـبَـرَاتِ
ففِي الهِنْـدِ مَحْـزُونٌ، وفي الصِّينِ جـازِعٌ
وفـي (مِـصْـرَ) بـاكٍ دائـمُ الـحَـسَـرَاتِ
وفي الشَّـامِ مَفْجُوعٌ، وفي الفُـرْسِ نادِبٌ
وفـي تُـونُسٍ مـا شِئْـتَ مِـنْ زَفَـرات
بَـكى عـالَـمُ الإسـلامِ عـالِمَ عَـصْـرِه
سِـراجَ الـدَّيـاجِي هـادِمَ الشُّـبُهَـاتِ[4]

= المعروف. والليث خادر: أي والأسد في أجمته. ويطلق السرطان أيضاً على برج في السماء يقابله برج الأسد الذي أطلق الشاعر عليه لفظ الليث. واستعمل الشطر الأوّل في المعنيين، كما يدل عليه سياق في الكلام في الأبيات التالي.

(١) أودى به: ذهب به. والختل: الخداع. والأجرام: الأفلاك.

(٢) ربه: صاحبه.

(٣) تقله: تحمله. ومستعّرات: مشتغلات من الحزن.

(٤) الدياجي: الظلمات.

مَـلاذَ عَـيَـايِيلٍ، ثِـمـالَ أرامِـلٍ
غِـيـاثَ ذَوِي عُـدْمٍ إمـامَ هُـدَاةِ[1]
فـلا تَنْصِبُـوا للنـاس تَمثالَ (عَبْـدِهِ)
وإنْ كـانَ ذِكْـرَى حِـكْـمَـةٍ وَثَـبـاتِ
فـإنّـي لأخْـشَـى أنْ يَضِـلُّوا فيُـومِئـوا
إلى نُـورِ هـذا الـوَجْـهِ بـالسَّجَـداتِ[2]
فيـا وَيْـحَ للشُّـورَى إذا جَـدَّ جِـدُّهـا
وطـاشَـتْ بـهـا الآراءُ مُشْـتَـجِـرَاتِ[3]
ويَـا وَيْـحَ لِلْفُتْيـا إذا قِيـلَ مَنْ لَهـا؟
ويـا وَيْـحَ لـلخَيْـراتِ والـصَّـدَقـاتِ
بَـكَـيْـنَـا عَـلى فَـرْدٍ وإنّ بُـكَـاءَنـا
عـلى أنـفُسٍ لِـلّهِ مُـنْـقَـطِعـات
تَـعَهَّـدَهَـا فَـضْـلُ الإمـامِ وَحـاطَـهـا
بـإحْسَـانِـه والـدَّهـرُ غيـرُ مُـواتِـي[4]
فـيـا مَنْـزِلاً فـي (عَيْـنِ شَمْشٍ) أظَلَّني
وأرْغَـمَ حُـسَّـادِي وغَـمَّ عُـداتِـي[5]

---

(١) الملاذ (بالفتح): الملجأ. وعيايل: جمع عيِّل (بتشديد الياء). وعيل الرجل: من يتكفّل بهم ويمونهم ويقوم عليهم. وثمال الأرامل: من يقوم بأمرهن ويعينهن. والغياث: المغيث والمعين. والعدم: الفقر.

(٢) يومئوا: يشيروا. وقد ردّ الشاعر بهذا البيت على ما اقترحه بعضهم من إقامة تمثال للأستاذ الإمام.

(٣) يريد «بالشورى» مجلس شورى القوانين وكان الفقيد عضواً به. وطاشت: انحرفت عن القصد. ومشجّرات: مشتبكات لا يتميَّز فيها الحق من الباطل.

(٤) حاطها: صانها وحفظها. والمواتي: الموافق المساعد.

(٥) عين شمس: ضاحية من ضواحي القاهرة معروفة، وكان فيها بيت الفقيد.

دَعـائِـمُـه التَّـقْـوَى وآسـاسُـه آلهُـدَى
وفيـه الأَيـادِي مَـوْضِـعُ الـلَّبِـنـاتِ
عليـكَ سَـلامُ آللّهِ، مـا لَـكَ مُـوحِشـاً[1]
عَبُـوسَ المَغـانِي مُقْفِـرَ العَـرَصَـاتِ[2]
لـقـد كنتَ مَقْصـودَ الجَـوانِـب آهِـلاً
تَـطُوفُ بِـكَ الآمـالُ مُـبْـتَـهِـلاتِ[3]
مَـثـابَـةَ أَرْزاقٍ، ومَـهْـبِطَ حِـكْـمَـةٍ
وَمَـطْلَعَ أَنْـوارٍ، وكَـنْـزَ عِـظاتِ[4]

رثاء مصطفى كامل باشا

مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني في مصر وزعيم المناوئين للاحتلال، ولد في القاهرة سنة ١٨٧٤ وكان خطيباً سياسياً مصقعاً وصحافياً واسع النفوذ. واليه يرجع الفضل في إذكاء روح القومية المصرية وتوحيد صفوف المصريين للمطالبة بحقوقهم. توفي سنة ١٩٠٨، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره وكان يوم جنازته يوماً شعبيّاً مشهوداً، وقد عمّ الحزن عليه مصر بل جميع الأقطار العربيّة، ورثاه الأدب العربيّ في كلّ مكان. ومِمّا قيل فيه قصيدة حافظ التالية:

أيا قبرُ هذا الضَّيفُ آمالُ أُمَّةٍ
فَكَبِّرْ وَهَلِّلْ والقَ ضَيْفَكَ جاثيا

(١) دعائم البيت: عمده. والأيادي: النّعم. واللبنات: ما يضرب من الطين للبناء، الواحدة لبنة.
(٢) الموحش: الخالي الذي ليس به ساكن. ومغانيه: منازله التي كان ينزل بها ساكنوه، الواحد مغنى. وعرصاته: ساحاته.
(٣) منزل آهل: عامر بأهله. ومبتّهلات داعية مُتَضَرِّعة.
(٤) المثابة: المرجع. أي إن الناس كانوا يرجعون إلى هذا البيت في طلب أرزاقهم.

عزيزٌ علينا أنْ نَرَى فيكَ (مُصْطَفى)
شَهيدَ العُلَى في زَهْرَةِ العُمْرِ ذاويا

أيا قَبْرُ لَو أنَّا فَقَدْناهُ وَحْدَهُ
لكانَ التَّأسِّي مِنْ جَوَى الحزْنِ شافيا[1]

ولكِنْ فَقَدْنَا كُلَّ شَيْءٍ بِفَقْدِهِ
وَهَيْهَاتَ أنْ يأتي بِهِ الدَّهْرُ ثانيا

فيا سائلي أينَ المروءَةُ والوفا
وَأيْنَ الحِجَا والرأيُ؟ وَيْحَكَ ها هيا

هَنيئاً لهمْ فَلْيَأْمَنُوا كُلَّ صائِحٍ
فَقَدْ أُسْكِتَ الصَّوتُ الذي كان عاليا[2]

وماتَ الذي أحيا الشُّعورَ وَساقَهُ
إلى المجدِ فاسْتَحْيَا النُّفوسَ البواليا[3]

مَدَحْتُكَ لَمَّا كُنْتَ حيّاً فلم أُجِدِ
وَإنِّي أجيد اليوم فيك المراثيا

عَلَيْكَ، وإلّا ما لِذا الحزنِ شاملاً
وَفيكَ، وإلّا ما لِذا الشَّعْبِ باكيا[4]

يموتُ المداوي للنفوسِ ولا يَرَى
لما فيهِ مِنْ داءِ النُّفوسِ مُداويا

---

(١) التأسِّي: التصبّر والتعزّي. وجوى الحزن: حرقته.

(٢) الضمير في «لهم»: للأنجليز.

(٣) استحياه أي أحياه والاستحياء (لغة): الاستبقاء، يقال: استحيا فلان فلاناً، إذا أبقاه حيّاً.

(٤) عليك، أي عليك الحزن، وفيك، أي فيك البكاء.

وَكُنّا نِياماً حينما كنتَ ساهداً
فَأَسْهَدْتَنا حُزْناً وَأَمْسَيْتَ غافيا
شهيدَ العلا، لا زالَ صَوتُكَ بيننا
يَرِنُّ كما قَدْ كانَ بالأمْسِ داويا
يُهيبُ بنا هذا بناءٌ أَقَمْتَهُ
فلا تَهْدِموا باللّهِ ما كُنْتَ بانيا[1]
يَصِيحُ بنا: لا تُشعروا الناسَ أنّني
قضيتُ وأنَّ الحيَّ قد بات خاليا[2]
يُناشِدُنا باللّه ألاّ تَفَرّقوا
وَكُونوا رجالاً لا تَسُرُّوا الأعاديا
فَرُوحي من هذا المقام مُطِلَّةٌ
تُشارِفُكُمْ عَنّي وَإنْ كُنْتُ باليا[3]
فلا تُحزِنوها بالخلافِ فإنّني
أخافُ عليكُمْ في الخلافِ الدَّواهيا
أجلْ، أيّها الدّاعي إلى الخير إنّنا
على العهدِ ما دُمْنا فَنَمْ أَنْتَ هانيا
بناؤُكَ مَحْفُوظٌ، وَطَيْفُكَ ماثلٌ
وَصَوتُكَ مَسْمُوعٌ، وإنْ كُنْتَ نائيا

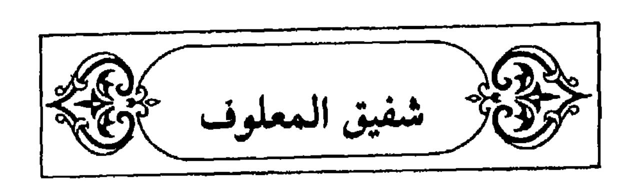
(١) أهاب به: صاح به ودعاه.
(٢) قضى: مات.
(٣) شارفه، نظر اليه من عَلٍ.

عَهِدْنَاكَ لاَ تَبْكِي وَتُنْكِرُ أنْ يُرى
أَخُو البَأْسِ فِي بَعْضِ المواطِنِ باكيا
فَرَخِّصْ لنا اليومَ البُكاءَ وفي غدٍ
ترانا كما تَهْوَى جبالاً رواسيا
فيا نِيلُ إنْ لَمْ تَجْرِ بَعْدَ وفاتِهِ
دَماً أحْمَراً لا كنتَ يا نيلُ جارِيا
ويا (مِصْرُ) إنْ لَمْ تَحْفَظِي ذِكْرَ عَهْدِهِ
إلى الحشرِ لا زالَ انْحلالُكِ باقيا
ويا أَهْلَ (مِصْرٍ) إنْ جَهِلْتُمْ مُصَابَكُمْ
ثِقُوا أَنَّ نَجْمَ السَّعْدِ قد غارَ هاويا
ثلاثون عاماً[1] بل ثلاثون دُرَّةً
بجيد اللّيالي ساطعاتٍ زواهيا
سَتَشْهَدُ في التاريخِ أنَّكَ لَمْ تَكُنْ
فتًى مُفْرَداً بلْ كُنْتَ جَيْشاً مُغازيا

---

(١) توفي مصطفى كامل باشا عن أربعة وثلاثين عاماً، فالثلاثون في هذا البيت عدد تقريبيّ.





شفيق المعلوف

شاعر لبنانيّ، معاصر، ولد في زحلة سنة ١٩٠٥ م، وتثقّف تحت إشراف أبيه العلّامة عيسى، إسكندر المعلوف. أسهم بنشاط في «العصبة الأندلسيّة» التي أنشأها بعض الأدباء العرب المهاجرين إلى أميركا، وترأّسها مدّة من الزمن. له مؤلفات عديدة شعراً ونثراً، منها «رواية ليلى الأخيليّة»، و«نداء المجاذيف»، وملحمة «عبقر» التي تُرجمت إلى عدّة لغات أجنبيّة.

من أشهر قصائده في الرثاء تلك التي قالها في شقيقه فوزي.

أَهْـوَيْتُ أَبْحَثُ عَنْـهُ في التُّـرَبِ
تـاجٌ تَـدَحْـرَجَ عَنْ جَبِينِ أبـي
يـا مَوْتُ وَيْـكَ! صَفَعْتَ أيَّ أبٍ
شَـيْـخٍ بِعِـبْءِ سِنِيِّـهِ تَـعِـبِ
عَـبَـثـاً تُـفَـتِّشُ تَـحْـتَ لِـمَّـتِـهِ
عَنْ شَعْـرَةٍ سَـوْدَاءَ لم تَشِبِ[1]
والأُمُّ! هل غُصَصُ النَّوَى تَرَكَتْ
في صَـدْرِهَـا شَـوْطاً لِمُنْتَهِبِ؟

(١) اللُّمَّة: الشعر الذي يتجاوز شحمة الأذن.

وا طُولَ حَسْرَتِها وَقَدْ وَلَدَتْ
لِلْمَجْدِ لا لِحَفائِرِ التُّرَبِ!
فَوْزي، فَدَيْتُكَ، كُلُّ هاتِفَةٍ
في الصَّدْرِ تَنْطِقُ بآسْمِكَ العَذِبِ
باكَرْتُ قَبْرَكَ حِينَ رَوَّعَني
أنَّ القُبُورَ كَثِيفَةُ الحُجُبِ
فَوَدِدْتُ لَوْ كَفَّايَ بَعْثَرَتا
كُوَمَ الزُّهُورِ عَنِ الثَّرَى الرَّطِبِ
فَأُزِيلَ عَنْكَ ثَرًى لُفِفْتَ بِهِ
مَنْ كانَ مِثْلُكَ لُفَّ بالسُّحُبِ
أتَغُورُ تَحْتَ الأرْضِ زَوْبَعَةٌ
نارِيَّةٌ قُدْسِيَّةُ اللَّهَبِ!
مُذْ ضاقَ عَنْها الكَوْنُ وَآكْتَنَفَتْ
طَرَفَيْهِ مِنْ قُطْبٍ إلى قُطُبِ
سَخَّرْتَ أجْنِحَةَ النُّسُورِ لَها
وَدَفَعْتَها وَثْباً إلى الشُّهُبِ
لَهْفِي على نَسْرٍ تَوَغَّلَ في
تَحْلِيقِهِ يَوْماً وَلَمْ يَؤُبِ
نَسْرٌ جَرِيءُ الوَثْبِ مُكْتَمِلٌ
ريشُ الجَناحِ مُتَمَّمُ الأُهَبِ
ثَبْتُ التَّوَقُّلِ لا يَسُفُّ متى
وَطِئَ الغَمامَ بِمَخْلَبٍ صَلِبِ[1]

(١) التوقّل: الصعود. يسفّ يمرّ على وجه الأرض.

ذَيَّـاكَ فَـوْزِي فَهْـوَ ليس سِوَى
نَـسْـرٍ وَرَاءَ الغَيْمِ مُحْتَجِبِ
لا هـذهِ الـرِّمَمُ التي فَشِلَتْ
وَثْبَاتُها فَهَوَتْ على الهِضَبِ[1]

* * *

وقال بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال أخيه فوزي :

فَوْزِي، وَمَا لِي في الخُطُوبِ يَدَانِ
مـا هكَـذَا الأخَـوَانِ يَلْتَـقِيَـانِ
قَـرَّبْتُ صَدْري لِلْعِنَاقِ فَلَمْ أَقَعْ
إلاَّ عـلى قِـطَعٍ مِـنَ الصَّـوَّانِ
هَشَّتْ لَـكَ الأزْمَانُ قَبْـلَ وِلادها
فَـآخْلَعْ زَمَانـاً وَآتَّشِحْ بِـزَمَـانِ[2]
لِلَّهِ نَصْبُـكَ فَهْـوَ أَخْـلَدُ بُـرْدَةٍ
في الأَرْضِ يَنْسُجُهَا الخُلُودُ الفاني[3]
نُصْبٌ خَفَضْتُ لَهُ الجُفُونِ كـأنَّما
نُصِبَتْ حِجَـارَتُـهُ على أجْفَـاني

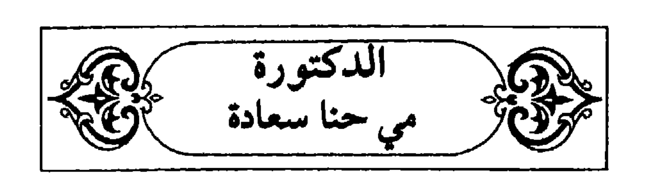
---

(١) الرمم: ج رمّة، وهي ما بلي من العظام.

(٢) هشّت: تبسّمت وارتاحت، نشطت.

(٣) النصب: الصَّنَم، وهنا التمثال. بردة: ثوب مخطّط يلتحفُ به.





أديبة لبنانيّة، وُلِدَت في أميون (لبنان الشمالي) سنة ١٩١٦ م، ونالت شهادة التخصّص بأمراض النساء والتوليد سنة ١٩٤٢ م. مارست، ولا تزال، الطبّ والجراحة النسائيّة في طرابلس. لها ديوان شعريّ بعنوان «أوراق العمر».

لُقِّبتْ، بحَقّ، شاعرة الأمومة في الأدب العربيّ، نظراً إلى قصائدها الرائعة التي قالتها في أبنائها، وخاصَّة في ولدها الشهيد «نقولا» الذي استُشْهد في الحرب اللبنانية (١٩٧٥ م). تقول في إحدى قصائدها لابنها «حَنّا»:

لـو عَلَى عَيْني بِنَعْلَيْـهِ مَشى
لَمْ أَقُـلْ يومـاً لَهُ: يـا ابني تَـأَنَّى

يمتاز رثاؤها لابنها «نقولا» باللّوعة الحارّة، والعاطفة المتدَفِّقة، فهي تتمثَّل ابنها أبداً، وتخاطبه، وتصوِّره بحبّ أموميّ يفوق، في صدقه والتياعه كلّ وصف. وفيما يلي بعض النماذج منه:

الذكريات التائهة!

تَـلاَقَتْ ذِكْـرَيَـاتٌ في خَيـالي
أَتَنْسَى الـذِّكْرَيَـاتُ؟ مِنَ المحال

يُؤَرِّقُني التساؤُلُ عَنْ فراغ

فَراغٍ في النَّهارِ وفي اللَّيالي

وَطِبِّي لا يُجيبُ وَلَيْسَ يَدْري

وَكُتْبي لا تَرُدُّ عَلى سُؤالي

أَلَا فَامْلأْ فَراغاً في عُيوني

وفي رُوحي وعُدْ مِثْلِ الهِلالِ

تَثورُ الذِّكْرَياتُ تَمُر سَكْرَى

عَلَى عَيْني عَلى فِكْري وَبالي

فكُنْتَ تَعودُ مِنْ بَعْدِ افْتِراقٍ

وَتَحْمِلُني على وَهْجِ الوِصال

. يُزَنِّرُني ذِراعُكَ يا نِقولا

على خَصْري تَشُدُّ بلا كِلالِ

تَدورُ البيتَ بي فَرَحاً وشَوقاً

تَميلُ مِنَ اليمينِ إلى الشِّمالِ

وَفُسْطاني يُفَتِّحُ فيه وَرْدٌ

وَتَرْقُصُ في الهواءِ خيوط شالي

فَأَثْمَلُ فَوقَ صَدْرِكَ مِنَ عَبيرٍ

وَأَصْعَدُ للسَّماءِ وَلَا أُغالي

وَتُهْمِلُ كُلَّ حَسْناءٍ أَمامي

تَعَثَّرُ وَهْيَ تَمْشي في ظِلالي

تُصَعِّدُ إِذْ تَراكَ تَنَهُّداتٍ

تَغارُ مِنَ العِناقِ ومِنْ دَلالي

من قال غاب؟

طَـال البعـادُ أمـا قَـدْ حـان لُـقْيـانـا
أيـا نـقـولا، فـإنَّ الـبُـعْـدَ أوْهـانـا
إنْ كُنتُ أبـدو أمـامَ النّـاسِ هَـادِئـةً
في قلب أُمِّـكَ قَـدْ فَجَّـرْتَ بـركـانـا
مَنْ قـالَ: قَـدْ غـابَ؟ كَـلّا لم يغبْ أبـداً
أراهُ فـي مُـقْـلَـةِ الإنْـسَـانِ إنْـسـانـا
أَرَاهُ فـي كُـلِّ قَـوْمـيٍّ غـدا بَـطلاً
أراهُ فـي وَطَـنِ الأَحْـقَـادَ قُـرْبـانـا
أراهُ فـي الـطِّبِّ في كُتْبي على شَفَتي
أراهُ فـي زهـراتِ الـوَرْد أَلْـوانـا
أراهُ في الـطّيـرِ في الأشجـار بـاسِقَـةً
أراهُ فـي نَـسَـمـاتِ الـفَـجْـر أَلْـحـانـا
أراهُ حـولـيَ في رِفْـقٍ.... يُـداعِبُـني
وفي سَـريـريَ عنْـدَ الصُّبْـح أحيـانـا
يُـسِـرُّ لِـلأمِّ شَـكْـواهُ بـلا وَجَـلٍ
دَومـاً، وَيَـشْـرَحُ إشْـكـالاً وأشْـجـانـا
إنّي سَـأدْعـو ابْنَتي «ميّـا» ـ يُفـاجِئُني ـ
حُـبّـاً وَمَـكْـرَمَـةً مِـنّـي وعـرْفـانـا!
إنَّ الـخُلودَ، أيـا ابـني، لـيسَ يُشغلُني
رَضـيتُ فِـيكـمْ، وكـان القَـلْبُ مَـلآنـا

شُكْـراً حبيبي لَقَـدْ أَعْـطَيْتَنَـا بَـطلاً
بـهِ نَـتيهُ، وَقَـدْ رَفَـعْتَـنـا شـانـا
هَـلْ قَـدْ تَـرَكْتك يـوماً؟ كيف تَتْـرُكُني
ثَـكْـلَى لأَنْـسُـجَ لـلأَيّـام أَحْـزانـا؟
أَصِـفُّ حَـوْلَـكَ وَرْداً كنـتَ تَـعْشَـقُـه
وَأَقْـرَأُ الـكُـتْـبَ إنـجـيـلاً وَقُـرْآنـا
كَـمْ قَـدْ طَلَبْتُ وكَمْ صَلَّيتُ جـاثـيـةً
لِيَـحْمِـيَ الـلّهُ أَبـطالاً وشـجـعـانـا
مضى شهيـداً فَـلِمْ أبكي عليـه؟ لـقَـدْ
رَدَّ الـوديعـةَ لمّـا الـوقتُ قَـدْ حـانـا
قـد كـان يـمـلأُ «أميـونـاً» بـبهـجتـه
واليـوم يمـلأُ كـلَّ الـكـونِ إيـمـانـا

أيلولُ ليس بقادمٍ

الـيـومَ لي بـيتي ولي وَحْـدي
وَلِيَ الـدموعُ نَـدًى ولي وَجْـدي
الـدَّمْـعُ لاَ لتَفَجُّـعٍ أَوْ حَسْـرةٍ
لـلذِّكـريـاتِ فـمـاؤهـا وِردي
إنّـي لأذكـرُ يـومَ كنـتُ عـليـلةً
وَأَرَدْتُ أن تمضي مـع الـوُلْـدِ
فصدفتَ عن كل الـرفاق ولُعْبهِمْ
وبقيتَ قـربي رافـضـاً بُعـدي

كَمْ قَدْ حَرَصْتُ عَلى هناكَ مُدلِّلي

من ذا يكيلُ لكَ الهنا بَعدي؟

إنِّي جُمَعْتُ الياسَمِينَ أصوغُهُ

عِقْداً لجيدِكَ حامِلاً وجدي

ويُرادُ مِنِّي أن أُغيِّر مَلْبَسي

تَغْييرُ لون الثَّوب هل يُجدي؟

ماذا يُبدِّلُ أسودٌ أو أبيضٌ

في القلبِ ما فيه مِنَ الوقْدِ!

هذي قميصُكَ قد لبستُ أما تَرى

فَكَأنَّها خيطتْ على قَدِّي

ركضتْ إليَّ وعانَقَتْني! هل دَرَتْ

أنِّي حبيبةُ هذهِ البُرد

حتَّى قميصُك هذِهِ الخَرْسا حَكَتْ

لي قِصَّةَ الأبطالِ والمجدِ!

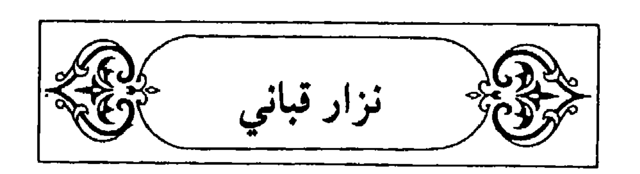
أتزورُ في أيلول أُمَّكَ مُهْجَتي؟

أهُناكَ وَصْلٌ بَعدَ ذا الصَّدِّ؟

إنْ لَمْ تَعدْ، أيلولُ ليس بقادمٍ

سِيَّان يَخفي الزَّهْر أوْ يُبدي





نزار قباني

شاعر من كبار الشعراء العرب المعاصرين، فلسطينيّ الأصل، سوريّ المولد والجنسيّة، لبنانيّ الإقامة والهوى. ولد في دمشق في السنة ١٩٢٣ م/ ١٣٤٢هـ، وتخرَّج في الجامعة السوريّة بإجازة في الحقوق، وخدم وطنه في السلك الدبلوماسيّ ما بين السنة ١٩٤٥ م، والسنة ١٩٦٦ م. يُعتبر من كبار المجدِّدين في الأدب العربيّ المعاصر. لقِّب بـ«شاعر المرأة»، واشْتُهِر بالغزل، لا بالرِّثاء، ولكن له قصيدة طويلة قالها في رثاء زوجته العراقيّة بلقيس عندما قُتلت بانفجار في بيروت، وهي تدلّ على أنّ عبقريّة الشاعر لا تقتصر على ضرب من ضروب الفنّ الغنائيّ، فالمُبدِع المُجيد يُبدع ويُجيد في أيّ فَنّ غنائيّ عزف على أوتاره. وفيما يلي بعض المقاطع من هذه القصيدة.

شُكْراً لَكُمْ. . .
شُكْراً لَكُمْ
فَحَبِيبَتِي قُتِلَتْ، وصار بِوُسْعِكُمْ
أنْ تَشْرَبُوا كَأْساً على قَبْرِ الشَّهيدَهْ
وَقَصِيدَتي اغْتِيلَتْ. . .
وَهَلْ مِنْ أُمَّةٍ في الأرْضِ

إلاَّ نَحْنُ تَغْتَالُ القَصِيدَهْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .
كانَتْ أجْمَلَ المَلِكَاتِ في تاريخِ بابِلْ
بَلْقِيسُ . .
كانَتْ أطْوَل النَّخْلاَتِ في أرْضِ العِراقْ
كانَتْ إذا تَمْشِي
تُرَافِقُهَا طَوَاويسُ . .
وتَتْبَعُهَا أيائِلْ . . . .
بَلْقِيسُ . . . يا وَجَعِي . .
ويا وَجَعَ القَصيدَةِ حينَ تَلْمَسُها الأَنَامِلْ
هَلْ يا تُرَى . . .
مِنْ بَعْدِ شَعْرِكِ سَوفَ تَرْتَفِعُ السَّنابِلْ؟؟

* * *

يا نينَوى الخَضْراءَ
يا غَجَرِيَّتي الشَّقْراء
يا أمْوَاجَ دِجْلَةَ
تَلْبَسُ في الرَّبيعِ بِساقِها
أحْلَى الخَلاخِلْ

* * *

بَلْقِيسُ!
لا تَتَغَيَّبِي عَنِّي

فَإنَّ الشَّمْسَ بَعْدَكِ

لا تُضِيءُ على السَّواحِلِ

* * *

بَلْقِيسُ

أيَّتُهَا الشَّهِيدَةُ.. والقَصِيدَةُ

والمُطَهَّرَةُ النَّقِيَّهْ...

سَبَأٌ تُفَتِّشُ عَنْ مَلِيكَتِها

فَرُدِّي للجماهيرِ التَّحِيَّهْ

* * *

الموتُ في فنْجَانِ قَهْوَتِنا..

وفي مِفْتاحِ شِقَّتِنا...

وفي أزْهَارِ شُرْفَتِنَا...

وفي وَرَقِ الجَرَائِدِ...

والحروفِ الأبْجَدِيَّهْ...

* * *

بَلْقِيسَ...

يا عِطْراً بِذاكِرتي

ويا قَبْراً يُسَامِرُ في الغَمامْ

قَتَلُوكِ، في بيروت، مِثْلَ أيِّ غَزالَةٍ

مِنْ بَعْدِها.. قَتَلوا الكلامْ

* * *

بَلْقِيسُ

مُشْتاقون . . . مُشْتاقون . . مُشْتاقون .

والبيتُ الصَّغِيرُ . .

يُسائِلُ عَنْ أميرَتِهِ المُعَطَّرَةِ الذُّيولْ

نُصْغي إلى الأَخْبَارِ . . الأَخْبَارُ غامِضَةٌ

ولا تَرْوي فُضُولْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .

مُذْبَحونَ حَتَّى العَظْمِ

والأَوْلَادُ لا يَدْرونَ ما يَجْرِي

ولا أَدْرِي أنا ماذا أَقولْ

* * *

هل تَقْرعين البابَ بَعْدَ دَقائِقٍ

هَلْ تَخْلَعِينَ المعطَفَ الشَّتَوِيَّ

هَلْ تَأْتِي باسِمةً . . .

ونَاضِرَةً . .

وَمُشْرِقَةً كَأَزْهَارِ الحُقُولْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .

إنَّ زُروعَكِ الخَضْراءَ

ما زالتْ على الحيطانِ باكِيةً

وَوَجْهَكِ لَمْ يَزَلْ مُتَنَقِّلاً

بينَ المرايا والسَّتائِرْ
حَتَّى سجارتُكِ التي أشْعَلْتِها
لَمْ تَنْطَفِىءْ
ودُخانُها
ما زال يَرْفُضُ أنْ يُسافِرْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .
مَطْعُونونَ مَطْعُونونَ في الأَعْمَاقِ
والأَحْداقُ يَسْكُنُها الذُّهُولْ
بَلْقِيسُ . .
كيفَ أَخَذْتِ أيَّامِي وَأَحْلامي
وَأَلْغَيْتِ الحدائِقَ والفُصولْ؟!!

* * *

يا زوجَتي . .
وحبيبَتي . . وقصيدتي . . وضياءَ عَيْني
قَدْ كُنْتِ عُصْفوري الجميلَ
فكيفَ هَرَبْتِ يا بلقيسُ مِنِّي؟

* * *

بَلْقِيسُ . .
هذا موعِدُ الشّايِ العِراقيِّ المُعَطَّرِ
والمُعَتَّقِ كالسُّلافَهْ
فَمَنْ الذي سَيُوزِّعُ الأَقْداحَ، أيَّتُها الزَّرافَهْ

وَمَنِ الذي نَقَلَ الفُراتَ لبَيْتِنا
وورودَ دِجْلَةَ والرّصافَهْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .
يا بَلْقِيسُ . . .
يا بَلْقِيسُ . . .
كُلُّ غَمَامَةٍ تَبْكِي عليكِ
فَمَنْ تُرَى يَبْكِي عَلَيَّ
بَلْقِيسُ . . . كيفَ رَحَلْتِ صامِتَةً
ولَمْ تَضَعِي يَدَيْكِ على يَدَيّا؟

* * *

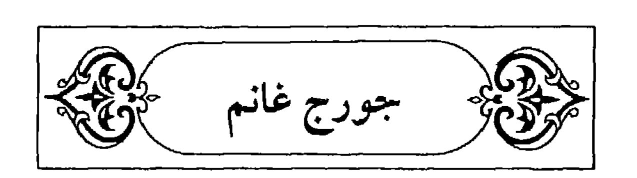
بَلْقِيسُ . . .
أسْأَلُكِ السَّمَاحَ، فَرُبّما
كانَتْ حَيَاتُكِ فِدْيَةً لِحَياتِي
إنِّي لأَعْرِفُ جَيِّداً
أنَّ الذينَ تَوَرَّطُو في القَتْلِ كانَ مُرادُهُمْ
أنْ يَقْتُلوا كَلِماتِي

* * *

نامي بِحِفْظِ اللَّهِ، أيَّتُها الجميلَهْ
فالشِّعْرُ بَعْدَكِ مُسْتَحِيلْ
والأُنوثَةُ مُسْتَحِيلَهْ

سَتَظَلُّ أَجْيالٌ مِنَ الأطفالِ
تَسْأَلُ عَنْ ضَفائِرِكِ الطَّوِيلَهْ
وَتَظَلُّ أَجْيالٌ مِنَ العُشَّاقِ
تَقْرَأُ عَنْكِ أَيَّتُها المعَلِّمَةُ الأَصِيلَهْ. . .





جورج غانم

جورج غانم، شاعر لبنانيّ، ولد في بسكنتا سنة ١٩٤٣، ونشأ على حُبّ الشعْر في بيت والده الشاعر عبد الله غانم. عمل في التدريس والإدارة والصحافة، وحصّل ثقافة فنّيّة متنوّعة من رمزيّة إلى رومنطيقيّة إلى كلاسيكيّة. يتميّز أدبُه بأناقة الأسلوب وفرح الأجواء، وتنوّع المواضيع. من مؤلفاته: «أزهار في الخريف»، «نداء البعيد»، و«أصوات وراء الحدود».

من أشهر قصائده في الرثاء تلك التي قالها في والده.

والدي

١ ـ وَعُدْنا، وشَدَّ الفراغُ علينا
وأَقْفَرَتِ الأرضُ أنّى مَشَيْنا
وخِفْنا نُردّد اسمَكَ خِفْنا نُردِّدُ شِعْرَكْ
فذِكراكَ نَهْرٌ من النّار يَجري إلينا
وحينَ عرفناكَ أنَّكَ أمسيتَ وحدَكْ
بَكيناكَ حتّى بكينا خُلودَكْ بَعدَكْ.

٢ ـ ومَرَّ زمانْ
غيومٌ وريحٌ وغربهْ

لِيالٍ تَطاوَلُ فيها الثَّوانْ
ولا صوتَ في بيتِنا لا ضِياءْ
نَسَجْنا على كلِّ عَيْنٍ مساءْ
ولَمْ يَبْقَ إلّا خيالُكَ نَقْبَعُ قربَهْ
وكان دخانْ.

٣ ـ أبي أين وجهُكَ أين يَراعُكْ
هجرتُ يراعيَ مُذْ غابَ عنّا شِراعُكْ
وأينَ الأحاديثُ بيني وبينَكْ
نُردِّدُها في العَشِيّ
وأبقى لَعينيكَ هذا الصَّبِيّ
يُدغدِغُ حضنَكْ
بَقاياكَ في البيت ثوبٌ عتيقْ
حذاءٌ جوارِبْ.

٤ ـ عصاً لا تُمَسُّ
دفاترُ نثرٍ وشِعرِ
غبارٌ سَرابٌ وحزنُ
بقاياكَ جرحٌ بقلبي وقلبِ الشَّبابِ
وفي قلبِ أمّي جراحُ
بقاياكَ فينا رِياحُ.

٥ ـ أبي أينَ صوتُكَ أينَ الحنانْ
قطعتَ تُخومَ الزَّمانْ

وأمسى مكانُكَ ذاك المكانْ

نُرجِّعُ ذكراكَ لحناً ويُخْنَقُ لحنُ

أبي مِن بقاياكَ نحنُ

شبابٌ يُعيدُ الى العمر وجهَ الفُتُوّةْ

أبي صِرْتَ في كلِّ فِكْرٍ نُبُوّةْ.

٦ ـ أُناديكَ آناً أناديكَ أَمْسَا

لتُشرِقَ فوقَ نهارِيَ شمسَا

لتُنبِتَ في راحتيَّ زُروعَا

وتُوجِدَ في مُقلتيَّ الرَّبيعَا

فيخصبَ تُرْبُ. . .

تُعلِّمُني كيف أُعطي وكيف أُحِبُّ

تُعلِّمني كيف يحيا الأُباةُ

وماذا تُريدُ الحياةُ

أبي عندما تتردّى الشّرورُ

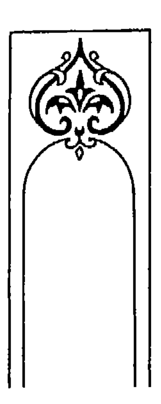
تُعلِّمُني أيَّ شَعْبٍ أُثيرُ



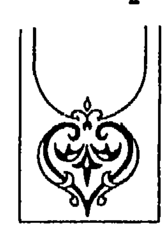
نُصبُ مدفني إغريقي في رودس

اعتاد الإغريق وضع أنصاب رخـاميّة على مـدافن موتـاهم تكريمـاً لهم وحفظاً لذكرهم. وتتكون هذه الانصاب من حجر مستطيل يزيّنه حفر ناتىء يمثّل الميت مع أحد أفراد عائلته في موقف حنان وعطف.

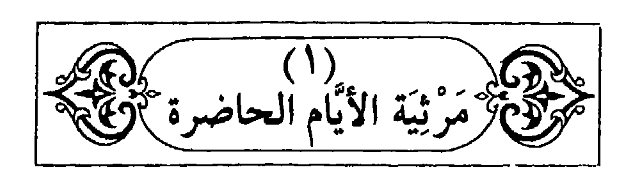
يحمل هذا النصب في أعلاه اسم كراتيو وتيماريستا وهو يمثّل شخصين في وقفة جانبيَّة، يد كلٍّ منهما على كتف الآخر في موقف تعزية وتأسٍّ. وقد أظهر النحّات طيّات الثوب الإغريقيّ بكلّ أمانة ودقّة، وأوحى بالهدوء والأسى المناسبين للموضوع ولموقع الحجر المدفنيّ.



مُتَفَرِّقات في الرِّثاء







(١) مَرْثِيَة الأيّام الحاضرة

الرِّيحُ ثقيلةٌ علينا، ورَمادُ أيّامِنا على الأرض. نلمحُ روحَنا في بَريقِ شَذْرةٍ أو على طَرَفِ خُوْذَة، وخَريفُ المَمالِحِ يتناثرُ فوقَ جِراحِنـا، وما من شجرةٍ أو نَبْع.

الليّلُ يَتَخثَّرُ[١]، وفوقَ جُثَثِ العصافير تَدِبُّ[٢] طفولةُ النَّهارِ، والبحرُ يُغلِقُ في وجهِنا سريرَه، وعَبَثاً يَتزحزحُ البابُ المُوْصَدُ[٣]. ونصرُخُ. ونحلُمُ بالبُكاء، ولا دمعَ في العيون، ونَلوي أعناقَنا تحتَ الرّيحِ والصَّقيع . . .

ونمضي، صدورُنا الى البحر، وفي كلماتِنا يرقُدُ نَحيبُ[٤]عصرٍ آخرَ، وكلماتُنا لا وريشَ لهـا، نُعانِقُ جُـزُرَ الوَحْـدَة، نَشُمُّ الغرابـةَ البِكْرَ في قَعْـرِ الهاوية، ونسمعُ مراكِبَنا ترسِلُ خُوارَها[٥] اليائسَ، واليَأْسُ هلالٌ طالعٌ، والشَّرُّ في طفولتِه. وعندَ مَساقِطِ الأنْهُرِ في بحرِنا المَيْت، يَلدُ الليّلُ أعياداً وعرائسَ من الزَّبَد والرَّمْل، من الجَرادِ والرَّمْل.

---

(١) يتخثّر: يتراكم الدم ويفسد.

(٢) تدبّ: تزحف ببطء.

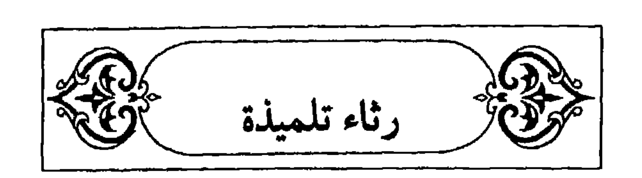
(٣) الموصد: المقفل.

(٤) نحيب: بكاء وعويل

(٥) الخوار: صوت الثور.

ونمضي في مُنحدراتٍ منَ الوحلِ والنَّحيبِ، والأرضُ تنزَفُ دماً في خواصِرِنا، الحياةُ هزيلةٌ في هذه الدّقائقِ من العمر، النّهارُ لا حواجبَ له، وليس للشّمسِ أهدابٌ طويلةٌ، وتحتَ أقنعـةِ الجليدِ والـرّملِ نكبَـرُ ويكبَرُ النّاس.

أدونيس
(بتصرّف)



رثاء تلميذة

قال الياس عَشيٍّ في رثاء تلميذة له سقطت بشظيَّة في الحرب اللبنانيَّة الأخيرة.

١ ـ عِنْدما يصير الوطن نَفَقاً، تُلغى المسافَةُ بينَ وَجْهٍ وَوَجْه، وتَنطفىء العيون، وتُصبحُ غربَةُ الإنسانِ مشابهةً لِغُرْبَةِ الوَطنِ، ولِغُرْبَةِ الموتِ.

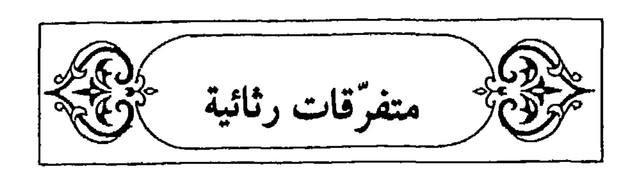
٢ ـ عِنْدما قالوا: لارا نَجَحَتْ لم أَنْفَعِلْ، فنجاحُ لارا كان واضحاً كَوضوحِ ابْتِسامتِها المزروعَةِ في أرجاءِ الصَّفِّ، وعندما قالوا: لارا ماتَت، لم أَبْكِ، فَمَوْتُ الياسمين قَدَرٌ لِتَبْقَى السماءُ مُعَطَّرَةً، وموتُ الياسمين لا يتوقَّفُ عِنْدَ سورِ الحديقة، بل هو مَوْتٌ نَبَوِيٌّ لَهُ نَكْهَةُ الطفولَةِ التي لَمْ يَرْحَمْها أَحَدُ في هذهِ السَّنَواتِ العِجافِ. كيف تموتين، يا لارا، بشظيَّة وأحلامك كانت كالورد؟

٣ ـ تأكَّدي يا لارا أنَّ موتَك أَلْغَى عَقْلي، وحَوَّلني في لحْظَةٍ إلى مشاعِر متناقِضة مفكَّكة لا ضابط لها سوى ذكرى عامين كنتِ فيهما تلميذتي، وسأبقى مع بقيَّة الأساتذة والزملاء نذكر عينيك الوامضتين وشعرك المجدول كأنَّه الشلال، وغمَّازتين على الوجه تُسامرين بهما الحقول.

٤ ـ وبَعْدَ شَهْرٍ نعودُ إلى المدْرَسَةِ دونَكِ، وسنَفْقِدُك يا لارا، وسَنُحاوِل الاّ نَبْكي، فَأَنْتِ تكْرَهينَ البكاء، لكنَّنا نَعِدُك بأَنَّك ستَبْقين في قلوبنا جميعاً: جديلةً، وغمّازتَين، وشَعْراً.

الياس عشيّ





إجْـرَحِ القَلْبَ واسْقِ شِعْرَكَ مِنْـهُ
فَـدَمُ الـقَلْبِ خَـمْـرَةُ الأَقْـلامِ

الياس أبو شبكة

* * *

نصيبُـك في حيـاتِـك مِنْ حَبيبٍ
نَصيبُـكَ في مَنامِـكَ مِنْ خَيـالِ
رمـاني الـدَّهْـرُ بِـالأَرْزاءِ حَتَّى
فُـؤادي في غِـشـاءٍ مِنْ نِـبـالِ
فَصِـرْتُ إذا أصـابتني سِـهـامٌ
تَكَسَّرَتِ النِّصـالُ على النِّصـالِ

المتنبيّ

* * *

قال ابن الجهم يرثي أولاده:

فـارَقْـتُكُـمْ، وَحَيِيتُ بَـعْـدَكُـمُ
مـا هٰكَـذا كـانَ الـذي يَجِبُ

إنّـي لألْقَـي الـنـاسَ مُـعْـتَـذِراً
مِـنْ أنْ أعِـيْشَ، وَأَنْـتُـمُ غُـيُـبُ

* * *

قال أمين نخلة في رثاء شبلي المّلاط:

إنْ تَرَى الرَّجْفَ حِيناً في أنامِـلِهِ
فَذاكَ مِنْ طولِ مَسِّ الوَحْيِ لِلْقَلَمِ

* * *

وَأَعُـودُ بالـذِّكْرَى على عَهْـدٍ لَنَـا
رَفَّـتْ عـليـهِ نَـضَـارَةٌ وَسَـنَـاءُ
أَيَّـامَ نَضْحَـكُ والمُنَى مَعْسُـولَـةٌ
ولِـكُـلِّ شَـيْءٍ رَوْنَـقٌ وَرُواءُ
نَحْتَالُ في رَوْضِ الشَّبابِ وَبُرْدِهِ
وَنَخَـالُ أنَّـا وَحْـدَنـا الأحْيَـاءُ

محمّد كوسا

* * *

روى الأصمعيّ أنّه رأى بالبادية امرأة ألصقت خدّها بقبر زوجها وهي تبكي، وتقول:

خَـدِّي تَقِيـكَ خُشُـونَـةَ اللَّحْـدِ
وَقَلِيلَةٌ لَـك، سَيِّـدي، خَـدِّي
يـا سـاكِنَ القَبـرِ الـذي بِـوفـاتِـهِ
عَمِيَتْ عَلَيَّ مَسـالِكُ الـرُّشْـدِ
اسْـمَـعْ أَبُثُّـكَ عِـلَّتي فَـلَعَلَّني
أُطْفِي بِـذلِـك حُـرْقَـةَ الـوَجْـدِ

* * *

تزوَّج الأمين بفتاة، وتُوفِّي عنها قبل أن يبني بها، فندبته ندباً حاراً، ومن قولها فيه:

أَبْـكِيـكَ لا لـلنَّـعيـمِ والأُنُسِ
بَـلْ لِلْمَعالي والـرُّمْحِ والفَـرَسِ
أَبْكي عـلى سَيِّـدٍ فُـجِعْـتُ بِـهِ
أَرْمَـلَني قَـبْـلَ لَـيْـلَةِ الـعُـرُسِ

* * *

من أروع ما رُثي به الـزوجات وأشجاه قول محمـد بن عبد الملك الزّيّات في زوجته:

أَلاَ مَنْ رَأى الطِّفْلَ المُفـارِقَ أُمَّهُ
بُعَيْـدَ الكَـرَى عَينـاهُ تَبْتَـدِرانِ[1]
رَأى كُـلَّ أُمٍّ وابْنَهـا غَيْـرَ أُمِّـهِ
يبيتـانِ تحت اللَّيـلِ يَنْتَجيـانِ
وبـاتَ وحيداً في الفـراشِ تَحُثُّهُ
بَـلابِلُ قَـلْبٍ دائِمِ الـخَفَـقَـانِ
فـلا تَلْحَيـاني إنْ بكيتُ فَـإِنَّمـا
أُداوي بهـذا الدَّمْـعِ مـا تَـرَيـانِ
وإِنَّ مكاناً في الثَّـرَى خُطَّ لَحْدُهُ
لِمَنْ كـانَ في قَلْبِي بِكُـلِّ مكـانِ

(١) يبتدران: يسيلان بالدموع.

أَحَقُّ مكـانٍ بـالـزِّيـارَةِ والهَـوَى
فَهَـلْ أَنْتُمـا إنْ عُجْتُ مُنْتَـظِرانِ

* * *

ماتت شريكة حياة محمود سامي البارودي، وهو منفيّ في سـرنديب (جزيرة سيرلنكا)، فَحُرِمَ أولاده أباهم وأمَّهم مـعـاً. واجتمع عليه بذلك أسى النفي، والفقد، وحرمان الأبناء، مِمّن كانت أنسهم في غيبته وأمنهم وسعادتهم، ولم يلبث أن بثّ حسرته المتوقّدة وحرقته المتأجّجة في مرثيـة طويلة يقول فيها:

يـا دَهْـرُ فِيمَ فَجَعْـتَني بحـليلةٍ
كـانتْ خُلاصَـةَ عُـدَّتي وَعَتـادي
إنْ كُنْتَ لَمْ تَرْحَمْ ضَنايَ لِبُعْدِها
أَفَـلا رَحِمْتَ من الأسَى أولادي
أَفْـزَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنَمْنَ تَـوَجُّـعـاً
قَـرْحَى العُيـونِ رَواجِفَ الأكْبـادِ
يَبْكِينَ مِـنْ وَلَـهٍ فِـراقَ حَفِيَّـةٍ
كـانَـتْ لَهُـنَّ كَثيـرَةَ الإسْعـادِ
فَخُـدُودُهُنَّ مِنَ الـدّمـوعِ نَـدِيَّـةٌ
وَقُلُوبُهُنَّ منَ الهُمـومِ صَـوادي

* * *

كان مالك بن الرَّيب في غزوة في خراسان، فحضرته المنيَّة، فنـاح على نفسه قائلاً:

فَيـا صاحِبَيْ رَحْلي دَنـا المـوتُ فَـاحْفِـرا
بَـرابَـيَـةٍ، إنِّـي مُـقـيـمٌ، لـيـالـيـا

وَخُطَّا بِأَطْرافِ الأَسِنَّةِ مَضْجَعي

وَرُدَّا على عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدائيا

خُذاني، فَجُرّاني بِبُرْدِي إليكُما

وَقَدْ كُنْتُ، قَبْلَ اليوم، صَعْباً قِياديا

تَفَقَّدْتُ مَنْ يَبْكي عليَّ فَلَمْ أَجِدْ

سِوى السَّيْفِ والرُّمْحِ الرُّدَينيِّ باكيا

وبالرَّمْلِ مِنّا نِسْوَةٌ لَوْ شَهِدْنَني

بَكَيْنَ وَفَدَّيْنَ الطَّبيبَ المُداوِيا

عَجوزي وَأُخْتايَ اللّتان أُصيبتا

بَمَوْتي وبِنْتٌ لي تهِجُ البواكِيا

وما كانَ عَهْدُ الرَّمْلِ مِنّي وَأَهْلِهِ

ذَميماً ولا بالرَّمْلِ وَدَّعْتُ قالِيا(١)

يَقولون: لا تَبْعَدْ وَهُمْ يَدْفُنونَني

وَأَيْنَ مَكانُ البُعْدِ إلاّ مَكانِيا

* * *

أوصَى أبو العتاهية بأن يُكتب على قبره هذه الأبيات الأربعة:

أُذْنَ حَيٍّ تَسَمَّعِي

اسْمَعِي ثُمَّ عِي وَعِي

أَنا رَهْنٌ بِمَضْجَعِي

فَاحْذَرِي مِثْلَ مَصْرَعي

---

(١) القالي: المُبغِض الكاره.

عِـشْـتُ تِـسْـعـيـنَ حِـجَّـةً
ثُـمَّ وافـيـتُ مِـضْـجَـعـي
لَـيْسَ شَـيْءٌ سِـوى الـتُّـقَـى
فَـخُـذي مِـنْـهُ أو دَعـى

***



الفهرس

من الرّثاء في العصر العبّاسيّ

من الرّثاء في العصر الأندلسيّ

من الرّثاء في العصر الحديث

متفرقات رثائيّة









سلسلة «اروع ما قيل»